"تصور ديمقريطس للسعادة البشرية"

بقلم : د/ محمود مراد*

مقدمة

إذا كان معظم مؤرخي الفلسفة يأخذون مأخذ التسليم ما قرره أرسطو قديما من إعطاء سقراط شرف أنه أول من صاغ فلسفة الأخلاق عند اليونان ، فحول الفلسفة بذلك إلي وجهة جديدة هي دراسة الإنسان بدلا من دراسة الطبيعة ، فإن هذا الرأي وإن كان له قدر عظيم من المصداقية قد أغفل البدايات الأخلاقية الأولي التي سبقت سقراط بزمن طويل ، أغفل الإرهاصات الأخلاقية التي أسهم بها عدد لا بأس به من السابقين على سقراط مثل هيراقليطس وأنبادوقليس وديمقريطس والسفسطائيين . صحيح أن مؤلفات هؤلاء قد ضاعت ، ولم تتبق منها سوى شذرات صغيرة لا تفيد في إقامة مذهب أخلاقي كامل ، وصحيح أيضا أن أحدا منهم لم يطرح نسقاً أخلاقياً متكاملاً ومن ثم فلم تشكل هذه البدايات في رأي طائفة كبيرة من المؤرخين[1] بداية حقيقية للنظرية الأخلاقية ، ومع ذلك يبقى من الظلم البين تجاهل هذه البدايات تجاهلاً تاماً في تاريخ فلسفة الأخلاق . وأنه يجب على تواريخ فلسفة الأخلاق أن تكون أكثر إنصافاً لديمقريطس فتذكره ومعه غيره كواحد من الرواد على الأقل لصورة رئيسية من صور النظرية الأخلاقية في العالم القديم.

يدور البحث الحالي في هذا الفلك ، حيث يعمل على رصد إرهاصة من هذه الإرهاصات الأولية لفلسفة الأخلاق قدمها ديمقريطس الأبديري من خلال تصوره لسعادة البشرية . لقد اشتهر ديمقريطس بنظريته الذرية أكثر من اشتهاره بتصوراته الأخلاقية رغم أن الثانية لا تقل عن الأولي أهمية . لقد جاء ديمقريطس في منتصف القرن الخامس ق.م ليكون حلقة الوصل بين التيار الأيوني الطبيعي القديم ، وبين الفكر الإنساني الجديد ، فأبى إلا أن يكون صوتاً معبراً عن عصره

---

* أستاذ الفلسفة اليونانية المساعد بآداب سوهاج .

هذا ، ذلك الذي كان يموج بالتيارات الفكرية والسياسية المتصارعة ، العصر الذي شهد وهن الفلسفة الطبيعية وميلاد الفلسفة الإنسانية على يد السفسطائيين وسقراط ، أبى إلا أن يجمع بين الطرفين المتقابلين في فكره فقدم نظريته الذرية المادية تواصلا مع القديم ، وتصوراته الأخلاقية تبشيراً بالجديد القادم . ولا أدل على هذه الازدواجية الفكرية من أن قائمة عناوين مؤلفاته التي أوردها " ديوجين لآيرتوس " والتي تتضمن ستين مؤلفا أن كان منها ثمانية عناوين لمؤلفات أخلاقية .[٢] وأن من بين الثلاثمائة شذرة التي انحدرت إلينا منه حوالي مائتين وعشرين شذرة تشتمل على حكم وتصورات أخلاقية أي ما يربو على الثلثين .[٣]

غير أن من يتعرض للتصورات الأخلاقية لدى ديمقريطس يجد أمامه عقبات كئود : على رأسها أن شذرات ديمقريطس الأخلاقية تنحدر من مجموعتين منفصلتين ، ومعظمها ذات طبيعة تعتمد على ضرب الأمثال : الأولي وردت لدى ستوباؤس وتتضمن ١٣٠ شذرة ، في حين وردت الثانية والتي تتضمن ٨٦ شذرة في مخطوطة بعنوان " الأقوال الذهبية لديمقراطيس Democrates الفيلسوف" وتم نشرها مرتين مرة في القرن السابع عشر ، ومرة في القرن التاسع عشر من مخطوط غير الأول .[٤] ورغم ضخامة عدد هذه الشذرات فلا أمل لدى الباحثين اليوم في اكتشاف فلسفة أخلاقية نسقية فيها ؛ والسبب أن معظم هذه الشذرات ينطوي كما قولنا على ما هو أقرب إلي الحكم والمواعظ منه إلي القواعد الأخلاقية المعيارية . وتتمثل العقبة الثانية في أن جزءا لا بأس به من هذه الشذرات لا تزال نسبتها إلي ديمقريطس محل أخذ ورد بين الباحثين .[٥] خاصة تلك التي وردت منسوبة إلي اسم Democrates . والعقبة الثالثة : أن ديمقريطس في معظم مأثوراته هذه كان يتحدث عما هو راهن في الحياة ، وليس عما ينبغي أن تكون عليه الحياة البشرية ، ومن ثم فإن ما يقدمه بذلك يخرج عن دائرة فلسفة الأخلاق المعيارية ، وهذا ما دفع " زيللر " إلي القول بأن ما قدمه ديمقريطس هنا كان نوعاً من التأمل الأخلاقي غير العلمي . حقا من الممكن أن نرى فيه رأيا متميزاً في الحياة يسري عليها في جملتها ، غير أن هذا الرأي لا يُؤسس على بحوث عامة منصبة على طبيعة الفعل الأخلاقي ، ولا منفذاً في تصور نسقي للواجبات والأنشطة الأخلاقية .[٦]

سوف نسعى إلي تذليل هذه العقبات ، حيث سنعمل على التغلب على الأولي

باغفال تلك الشذرات المتضمنة على حكم وأمثال دارجة . أما العقبة الثانية فسوف نتغلب عليها بالحرص على الاستعانة بالشذرات القاطع بصحة نسبتها إلي ديمقريطس عند معظم الباحثين ، أما العقبة الثالثة والقائلة أن تصورات ديمقريطس في السعادة كانت مجرد تصورات واقعية خالية من العنصر المعياري ، فهي صعوبة لا يمكن التغلب عليها فهذه هي الأقوال الوحيدة المتاحة أمامنا من الفيلسوف ، ولعل إقرارنا بهذه العقبة هو الذي يجعلنا ننظر إلي عمل ديمقريطس على أنه مجرد إرهاصة فحسب لفلسفة الأخلاق وليس تشييدا لها .

ومع أن الشذرات الأخلاقية المنحدرة إلينا من ديمقريطس لا تشكل نسقاً متكاملاً في فلسفة الأخلاق كما قلنا ، فإن المتأمل لها يلاحظ أن مسألة السعادة البشرية ، وسبل الوصول إليها كانت لها الصدارة في هذه الأقوال . وتخبرنا المصادر القديمة أن ديمقريطس قد وضع كتابا في السعادة كان عنوانه " في رضا النفس " περί Εἰθυμίης وقد تم الاقتباس منه بتوسع بواسطة شيشرون وكليمانت السكندري وسينكا وديوجين لآيرتوس واستوبايوس J. Stobaeus في القرن الخامس الميلادي . كما كان له كتاب آخر بعنوان " في الحياة السعيدة " ولكنه ضاع ، وترجح " كاثللين فريمان " أن يكون هذا الأخير عنواناً بديلاً للكتاب الأول .[٧] ونحن إذ نتجرأ هنا فننسب تصوراً في السعادة البشرية إلي ديمقريطس سبق به أرسطو ، فإننا نعتمد في هذه الجرأة على ثلاثة مبررات : الأول أن مذهب السعادة كان نسقاً موجوداً في كل النظريات الأخلاقية اليونانية كقاعدة عامة ، نجده لدى سقراط وأفلاطون وأرسطو وغيرهم ، فلا يمكن أن يشذ ديمقريطس عن هذه القاعدة ونحن نجد في شذراته تصوراً بارزاً لها . الثاني : أن لدينا مصادر قديمة في العصر الهللينستي مثل : سينكا وفلوطارخوس تخبرنا عن فلسفة ديمقريطس الأخلاقية بطريقة تجعل من الواضح أنها تقرأ ديمقريطس على أنه صاحب مذهب في السعادة Eudaemonist وشهادة كهذه أمر لا يمكن تجاهله طالما أن هؤلاء المؤرخين في وضع أفضل من ذلك الذي نحن فيه لصحة الحكم والتقدير في هذا الأمر . كما لا توجد أدلة يمكن أن تُقدم ــ كما تقول جوليا أناس ــ لسحب الجدارة عن رأي المؤرخين هؤلاء .[٨]

كان ديمقريطس المفكر الأول فيما يؤكد "تايلور" الذي حاول الإجابة على السؤال الذي سوف يغدو نقطة البدء لكل المذاهب الأخلاقية اليونانية،وهو سؤال :

ما هي السعادة ؟ أو ما هي الشاكلة التي ينبغي أن يحيا عليها المرء في حياته ؟؟[٩] وجاء التصور الذي طرحه للسعادة الإنسانية تصوراً واقعياً إلي حد كبير ، يعتمد في الأغلب على أحوال الإنسان كما يعيش ، لا كما ينبغي أن يحيا . ويسلم فيه بما في الإنسان من ضعف وتغير وخوف وطيش ، فجاء تصوره ــ كما سوف نرى ــ نوعا من النصيحة حول أسلوب الحياة الذي يقود من يسلكه إلي السعادة والراحة في حياته .[١٠] ويبدو أن ديمقريطس نفسه قد شعر بهذا المعني وهو يقدم نصائحه هذه فقال " عندما يمعن امرئ النظر في هذه الحكم التي أقدمها سوف يفعل الكثير من الأشياء الجديرة برجل صالح ، ويهجر الكثير من الأشياء السيئة ."[١١] لقد سعى ديمقريطس في تصوره إلي تقديم إجابات على إشكاليات أضحت شائعة بعد ذلك في فلسفة الأخلاق مثل : ما هي الغاية العليا لنا في الحياة ؟؟ ما هو المعيار الذي نعتمد عليه في اختيار أو تجنب الأشياء في سلوكنا ؟؟ ما هي طبيعة الخير الأسمى الذي يسعى خلفه كل البشر ؟؟ ما هي الطريقة التي تقودنا إلي تحقيق خيرنا الأسمى ؟؟ ... ووضع في إجاباته عليها كل حكمته وخبرته الحياتية الواسعة التي اكتسبها في جولاته العديدة . وسوف نعرض لموقف ديمقريطس من السعادة البشرية من خلال النقاط التالية :

أ – ماهية السعادة ب – أسس السعادة

جـ – سلوكيات الرجل السعيد

أ – ماهية السعادة

درجت الأجيال التالية على ديمقريطس على وصفه بلقب " الفيلسوف الضاحك "[١٢] ولعل السبب الذي دفعها إلي ذلك هو أن ديمقريطس قد فطن إلي المعني الحقيقي للوجود الإنساني ، وعرف مكانة الإنسان الحقيقية في هذا الكون، فأخذ يسخر من تضارب السلوك البشري ، ومن غرور البشر الفانين ، وتكالبهم على أشياء هم في الأصل لا يملكونها ، بل وليس بمقدورهم حتى الاحتفاظ بها في حوزتهم ، ومن ثم يعيشون في تعاسة ونكد ، فيقضون على سعادتهم بأيديهم ، كلما جدوا في طلب السعادة من وراء هذه الأشياء الزائفة كلما فقدوا مساحة أكبر من سعادتهم الحقيقة .

تخبرنا المصادر القديمة أن ديمقريطس قد وضع كتاباً بعنوان " في الغاية" [١٣]

بدأ بحثه في السعادة من خلاله مثلما بدأ أرسطو فيما بعد بالبحث عن الغاية التي من أجلها تُعاش الحياة . حيث قرر ديمقريطس أن هناك غاية عليا يرجوها الإنسان من وراء حياته كلها ، هدفاً أعلى يستهدفه من وراء كفاحه الدائم في الحياة . وهي غاية عليا لا يمكن أن تغدو وسيلة لغاية أعلى منها ، لأنه لا توجد ببساطة غاية أعلى منها لتكون لها وسيلة ، ويحدد ديمقريطس هذه الغاية بأنها السعادة . غير أن الإنسان وإن كان يعرف في أغلب الأحيان غايته العليا هذه فإنه كثيرا ما يبحث عنها ولا يجدها ، والسبب في رأي ديمقريطس أنه يجهل الطريقة الصحيحة التي توصل إليها ، والجهل بما هو الأفضل هو سبب هذا الفشل . وهنا تسأل ديمقريطس عما تكون عليه ماهية هذه السعادة بوصفها غاية البشرية انعليا؟ وما هي الطريقة الآمنة التي تقودنا إليها ؟؟

يقرر ديمقريطس أن البشر أصناف عدة ، وأن الإنسان لا يعيش في حياته كحيوان داخل قطيع ، بل يتميز بالعقل ، ويعرف أن السعادة غايته . ويدرك مصلحة نفسه ، ومن ثم يسعى لأن يكون سعيدا ، فالسعادة خاصية من خصائص النفس الإنسانية ، ولأن الإنسان حيوان عاقل فهو مسئول عن تحقيقها .[١٤]ولم يكن هذا الهدف الأعلى واضحا أمام الإنسان منذ البداية ، بل انشغل الإنسان لوقت طويل بمشكلة البقاء وتأمين ضروريات الحياة ، الأمر الذي لم يترك له وقتاً ليسعى فيه وراء الراحة . أما عندما نجح في توفير هذه الحاجات بكميات وفيرة بدأ يتكون لديه مفهوم جديد عن الوجود البشري ، مفهوم نقل الهدف الذي يسعى وراءه من مجرد الحفاظ على الحياة بوصفها كذلك ، إلي بلوغ شيء آخر ليس البقاء في الحياة إلا وسيلة فقط تقود إليه ، وهو السعادة البشرية .[١٥]

حدد ديمقريطس جوهر السعادة البشرية بأنه يتمثل في " الابتهاج " Euthumia حيث ذكر ديوجين لآيرتوس أنه يؤكد على أن الغاية العليا هي " الرضا" أو الابتهاج .[١٦]ويروي كليمانت السكندري ذلك أيضا بقوله " يعلم الأبيريون أيضا أن هناك غاية ، حيث يقول ديمقريطس في كتابه " في الغاية" أنها الابتهاج ."[١٧] كما ذكر المؤرخون أيضا أنه أطلق على هذه الغاية عدة أسماء أخرى كلها تقود إلي نفس المعنى مثل : " العيش السعيد " و " الأتراكسيا " ، و " التحرر من الاضطراب " وقال شيشرون أنه أسماها "رباطة الجأش " Athambia وقال استوبايوس أنها لديه " التوافق " . وإن كنا لا نعلم على وجه التأكيد عما إذا

كان ديمقريطس قد استخدم هذه الكلمات على أنها مساوية للسعادة مساواة تامة أم أنها مجرد صفات لها .[١٨] كما لسنا نعلم إن كان هذا التعدد في الأسماء يدل ــ كما يذهب البعض ــ على أنه لم يكن لدي ديمقريطس مصطلح واحد ثابت يصف الغاية العليا أم لا . ونحن نرجح من جانبا أن أتباع ديمقريطس المتأخرين هم الذين اختاروا هذه المصطلحات وفقا للجانب الذي ود كل واحد منهم التأكيد عليه في تصور الأستاذ .[١٩]فلا تكمن السعادة لديه إذن " في قطعان الماشية ، ولا أكداس الذهب ، بل النفس هي منبع عبقرية المرء الخيرة أو الفاسدة ."[٢٠] ويقول أيضا " من لا يستطيع أن يقاوم المال فلن يصبح عادلاً على الإطلاق ." Fr.50 الإنسان عنده هو الذي يشيد سعادته بنفسه من خلال نفسه ، السعادة هي إحساس باطني بالراحة والابتهاج ، وليس في امتلاك الأشياء المادية . كما لا تكمن السعادة عند ديمقريطس في اللذة الحسية ؛ لقد حذر ديمقريطس أكثر من مرة من الخطأ في فهم كلامه وأخذه على أنه دعوة فجة إلي اللذة .[٢١]فرغم أنه ينادي بأن اللذة والألم هما المحددان للسعادة Fr.4 كما أنه يشارك فيما سوف يقول به سقراط فيما بعد من ضرورة أن يضع الإنسان حساباً لذياً لكل الأفعال التي تعرض أمامه في الحياة ويختار منها الأكثر لذة ، ويتجنب الأكثر ألماً ، حيث يقول " إن أعظم شئ هو أن يقضي الإنسان حياته مستمتعا بأقصى درجة ممكنة من السرور وأقل درجة ممكنة من الاضطراب ."Fr.189[22] رغم ذلك يحذرنا بشدة من أخذ كلامه على إنه دعوة إلي اللذة الحسية ، حيث يختم هذه الشذرة بقوله " ولكن لن يتحقق هذا إلا إذا ابتعد البشر عن طلب لذاتهم في الأشياء المادية الفانية ." ويرفض هذه المساواة بين السعادة واللذة الحسية لأكثر من ضرر ينشأ عن اللذة . أولاً : أن لذات الحس عنده ليست سوى لذات ضئيلة الدرجة تماما مثلما تكون الإحساسات بالقياس إلي المعرفة اليقينية ، حيث يقرر في نبرة عداء لنسبية بروتاجوراس معاصره ومواطنه " بينما يختلف الشئ السار باختلاف البشر ، نجد أن الخير والصحيح واحد لدى البشر جميعا ." fr.69 ثانياً : أن لذات الحس لا تدوم إلا لفترة شديدة القصر في نهر الحياة ثم تتحول إلي نقيضها ، فيعقبها الألم حتما ، " فلا يتحصل أولئك الذين يقصرون متعهم على المعدة ــ متجاوزين حبل الاعتدال إلا على متع سريعة وقصيرة ــ فقط عند لحظة الأكل أو الشرب ، في حين تُعقب بآلام فظيعة ."[٢٣] إن الشيء الوحيد الذي ينبغي أن تكون على يقين منه ــ في رأي ديمقريطس

ـ أنك عندما تمتنع عن طلب لذتك في الأشياء الفانية فسوف تنتصر هنا اللذة على الألم .Fr.189 والمبدأ الذي يبغي أن يقودنا في كل ذلك هو " الاتساق والتناغم " وهو مبدأ فيثاغورثي بلا شك .[٢٤] ثالثاً : أن اللذة أمر ذاتي يختلف من إنسان إلي آخر ، في حين أن السعادة وهي غايتنا العليا التي نسعى وراءها جميعا فلا يمكن أن يركن إلي نزوع فردي لتقريرها ، فغايتنا العليا أمر موضوعي ، ويجب أن يتفق كل امرئ على أن لديه مبررا للسعي وراءه .[٢٥] رابعاً : رغم أنه من المفروض حتما أن تكون السعادة حالة من الهدوء النفسي الدائم نجد أن اللذة على العكس من ذلك تماما ، وذلك لأن الرغبة في الأشياء المادية دائما ما تتجدد نحو نفس الأشياء بشكل لا ينقطع مهما تم الاستمتاع وهكذا دواليك .[٢٦] فإذا كانت السعادة لا تكمن في متعة امتلاك الثروات المادية ، ولا في جني اللذات الحسية ، فما هو " الابتهاج " الذي قصده ديمقريطس وجعله مساوياً للسعادة ؟؟

يخبرنا " جومبرتس " أن ديمقريطس يبدأ كتابه " في رضا النفس " بوصف للوضع الكئيب لأغلبية الجنس البشري القلقة دائما ، والمنكبة دائما على بحث عبثي عن السعادة في الأشياء الفانية ، متمسكة الآن بشئ ، وبأخر غدا دون الوصول إلي الرضي والشبع الدائم ، وبدا له أن أسباب هذه التعاسة الرئيسية غياب الاعتدال في الرغبات ، وتعدي الحدود الواجب الالتزام بها ، والتوتر الناشئ من قضاء الخرافة على سلام الإنسان العقلي .[٢٧] ثم انطلق يحدد ما يقصده بالابتهاج قائلاً ـ كما يروي ديوجين لآيرتوس ـ إنه " حالة من الهدوء النفسي ، تحيا النفس فيها غير منزعجة بخوف أو وهم أو أي انفعال آخر ."[٢٨] فمن يريد أن يحيا سعيدا عليه أن ينمي فكره ويحرر نفسه من الانفعالات والخرافات والمخاوف . ويبحث بالتأمل عن السعادة العقلية التي في متناول الحياة البشرية وتتمثل في سلام النفس وهدوءها الباطني . فإذا حرص الإنسان على الحياة بهذه الشاكلة فسوف يحقق سلامة البدن { الصحة} وهدوء النفس { الابتهاج} ولن يوجد هذا إلا في خيرات النفس وحدها " إن ذلك الذي يختار خيرات النفس إنما يختار ما هو أكثر قدسية ، في حين أن من يختار خيرات الجسم فإنما يختار ما هو فاني ." Fr. 37 وقد اعتمد ديوجين في روايته هذه على قولين لديمقريطس فيما يبدو هما " يميل الرجل السعيد دائما إلي الأفعال العادلة في نومه وفي يقظته فيضحي شجاعاً غير مبال بشئ ." و قوله " إنه من الأفضل للفرد أن يقود حياته نحو الأسعد مع

أقل مشقة ممكنة ، ويتحقق هذا عندما لا يقيم ملذاته على الأشياء الفانية ."[٢٩]

غير أن الإنسان لن يتحصل على حالة الابتهاج النفسي هذه من خلال عملية تجنب المتع الحسية وحدها ، ولا من خلال العزوف عن امتلاك الأشياء المادية فقط ، بل وأيضا من خلال التحرر من المخاوف التي تقيد العقل البشري عن انطلاقه ، وتسبب له شقاءً عظيماً : مثل الخوف من الموت ومن الوقائع الطبيعية ومن الآلهة ، فمثلا خوف الإنسان من الموت ومما يعقبه من حياة أخروية ، يدفع الإنسان إلي التعلق بالحياة ، والرغبة في إطالتها ، وهو غير مدرك أنه لو طالت شيخوخته عن الحد لغدت الحياة كلها عذاب في عذاب ، الموت أفضل منها بكثير . ورأي ديمقريطس أن الطريق الوحيد للتحرر من هذه المخاوف هو معرفة الخير وتوجيه الإرادة إلي سلك طريقه ، وهذه المعرفة المصحوبة بالإرادة هي ما يسميه ديمقريطس " ما يجب عمله ".[٣٠] على الإنسان الذي يبغي السعادة الحقيقة أن يتحاشى الانفعال بأي مؤثر خارجي يغير من صفائه النفسي . حقا من الصعب إبعاد الإحساسات المختلفة عن الاتصال بعقل الإنسان ، ولكن على الإنسان أن يتحاشى قدر الامكان أي قلق محتمل من أي نوع . ولا يقل القلق الذهني شيئا بالطبع عن القلق على الأشياء المادية في التنغيص على سعادة الإنسان .[٣١]

كانت السعادة عند ديمقريطس خاصية للنفس وهو في هذا يبشر بأفلاطون .[٣٢] وذلك لأن وظيفة النفس أن تصوغ أسلوباً سليماً للعيش ، وعلى الإنسان أن يعتمد على نفسه وحدها في تشييد سعادته في هذه الحياة . لذلك نظر ديمقريطس إلي النفس على أنها الحارس الحامي للإنسان في كل شئونه ، لأنها تختار الاختيار الصحيح بناءً على معرفة بالخير .[٣٣]لقد كانت النفس لديه وليس الجسم العضو المسئول عن سلوك الإنسان ، لأنها التي تحركه ، ولا تتعرض للإفساد بسبب ملذات الجسم بل على العكس الذي يلام على ما يُسمى بالتجاوزات البدنية هي النفس " لأن ما يدمر الجسم ويفسده هو ظلام النفس وشهوانيتها ."Fr.159 " ومن ثم يجب أن يقيم الناس وزناً للنفس أعظم مما للجسم ، لأن كمال النفس يصلح فساد الجسم ، في حين أن قوة الجسد بدون تعقل لا تجعل النفس أفضل قيد أنملة ." Fr.187 ولهذا السبب فإن ديمقريطس ينصح الناس مثلما سوف يفعل سقراط بأن يعنوا بأنفسهم ، لأنها العنصر الوحيد فينا القادر على اكتساب الحكمة والفضيلة .[٣٤] ولا ينبغي أن يعتمد الإنسان في تشييد سعادته على ضربات الحظ ،

" فليس الحظ سوى " شماعة" اخترعها البشر لتغطية جهلهم ."Fr. 119 كما لا ينتظر إنعام الآلهة عليه بها ، إذ ينكر ديمقريطس ببساطة وجود عناية إلهية أصلا في الكون ، ويذهب إلي ما سوف يردده أبيقور فيما بعد من أن البشر قد اخترعوا الآلهة لخوفهم من الظواهر الأرضية والفلكية .[٣٥] وحتى لو كانت الآلهة موجودة فليس لها دور في شئون العالم ، ولا يجب أن ندعوها لتنعم علينا بالسعادة .[٣٦] ولا يجب أن يركن الإنسان إلي سعادة يتوقع أن يعيشها في الآخرة فيرضى بحاله السيئ في الدنيا لأنه لا وجود للخلود عند ديمقريطس ، وكل شئ مصيره الفناء . لا توجد فرصة متاحة أمام الإنسان سوى هذه الحياة ، فليسعى إلي اغتراف سعادته منها بأقصى ما في امكانه . فأحمق من يعتقد في الخلود أو الحياة الأخروية ، وأعظم منه حمقا من يخاف من الموت . يقول " إنهم لحمقى أولئك الذين رغم كراهيتهم للحياة يتمنون أن يعمروا في الحياة إلي الأبد خوفا من المجهول." فمخاوفهم هذه واهية ، إن من يعيش تحت ضغط القلق لن يصل إلي سكينة النفس أبدا .[٣٧] لقد كان العقاب الأخروي لديه ــ كما يقول ليوكريتيوس ــ محض خرافة آتية من خوف الإنسان ، في حين أن جهنم الإنسان الحقيقة قائمة داخله هو نفسه وليست في الآخرة .[٣٨]

غير أن ديمقريطس وإن كان قد أنكر اعتماد السعادة على اللذة فإنه لا ينكر أن تكون اللذة ثمرة من ثمار السعادة ، وأن الشر ليس ثمرة للذة بوصفها كذلك ، بل يوجد نتيجة لفشل النفس في أن تشيد لذاتها نموذجا أنبل من ذلك . أمن ديمقريطس أن النفس لديها القدرة على تجاوز حدود اللذة ، وفي ذلك سعادتها ، وعندما تخفق في استعمال قدرتها هذه ، سوف تنهمك في ملذات البطن ، فتطلب ما أكثر من المسموح لها مما يكلف الإنسان غاليا وهو سعادته الحقيقة .[٣٩] ويترتب على ذلك أن السعادة عند ديمقريطس ترتكز على ما نكون نحن عليه ، وعلى ما نصنعه نحن بأنفسنا . تُلتمس السعادة في نفسك وفي حياتك . إن ما يسمى بالسعادة ليس سوى المفهوم الدارج للحياة الناجحة ، ولا تُمتلك هذه الحياة بامتلاك الأشياء ، وإنما بالأفعال التي تقنعها أنت نفسك بما تملكه . ويعتمد هذا بدوره على نوع الشخص الذي تكون عليه .[٤٠] إن القيمة التي تمثلها الأشياء الخارجية لك تعتمد على مدى استعمالك لها " فالأشياء تتحول من الخير إلي الشر عند البشر عندما يعجزون عن توجيهها توجيهاً سديداً ، كما من الممكن استخدام

الأشياء الحسنة للتحصن من الأشياء السيئة عندما يرغب المرء ذلك ." أما الشذرة السابقة على ذلك فتقرر أننا نحصل من الأشياء نفسها على الخير والشر كل ما في الأمر أن المسألة تتوقف على الطريقة التي بها نتعامل معها . يجب أن نستعمل طريقة ذكية في التعامل معها ــ طريقة تشبه المهارة في السباحة ، تلك المهارة التي تجعل المرء طيعا وليس صلبا ."[٤١] وهي فكرة رددها أفلاطون بكثرة فيما بعد في " القوانين" و " أوتيديموس ".

تتمثل السعادة في الرضا أو " الابتهاج" إنها عملية استمتاع هادئ بالحياة . ويبدو من ذلك أن ديمقريطس أخذ مأخذ البداهة في تصوره للسعادة هذا تصوره الذري للنفس باعتبارها جوهراً مادياً ذرياً قائم في الجسم وتتبعثر معه عند الموت .[٤٢] فهناك علاقة إذن بين امتلاك حالة الابتهاج السعيد وبين امتلاك المرء لذرات نفسه في حالة توازن ديناميكي ، فما يحول بين النفس وبين ابتهاجها هو الحركات العنيفة بين مساحات واسعة للذرات المؤلفة للنفس ، وهذا ما عبر عنه ديمقريطس نفسه بقوله " إن المتع المعتدلة أمور ضرورية لتحقيق حالة الابتهاج، وذلك لأن الإفراط أو التخفيف من المتعة يسبب تغيراً وحركات سريعة في النفس ، والذرات التي تتحرك في مساحات واسعة لا تكون مستقرة ولا هادئة ، ومن الصعب أن تكون اللغة المستعملة هنا ــ كما يقول جثرى ــ لغة استعارية ، فتبعثر ذرات النفس أمر مضر بسلام العقل حتما ، وهو رأي كان له صداه في الطب المعاصر لديمقريطس ، ويؤكد هذا على أن ديمقريطس وهو يكتب عن السلوك ، وعن غايات الحياة لم ينس على الإطلاق نزعته المادية الكونية .[٤٣] وإذا كان هناك من ينكر وجود أي محاولة من جانب ديمقريطس لإقامة صورة الرجل السعيد على أساس فلسفي ذري طبيعي[٤٤] ، فإننا نراه رأياً متطرفاً . فمن المؤكد في رأي كثير من المؤرخين أيضا أن التصورات الأخلاقية متطابقة مع التصورات الطبيعية لديه ، وأن صورة الرجل السعيد قد أقيمت على أجزاء من مذهب ديمقريطس لم تصلنا اليوم .[٤٥] وقد أحس كتاب السير القدامى من اليونان بهذه العلاقة الوثيقة فاستعملوا مرادفات للابتهاج توحي بذلك ؛ حيث استعمل "استوبايوس " كلمة " انعدام القلق " واستعمل " ديوجين لآيرتوس " كلمة " مزاج هادئ مستقر " و شيشرون استعمل كلمة " الهدوء والسكينة ".[٤٦] وخلاصة رأي ديمقريطس هنا هو أنه إذا كان الجسم يحيا صحيحاً مؤدياً لوظائفه الطبيعية عندما يتألف من ذرات

متماسكة مستقرة ، كذلك النفس ينبغي أن تحافظ على ذراتها في نظام مماثل ، وبدون ذلك تعجز تماما عن تحقيق مهمتها ، وتفقد رشدها .[47] ويشير ادوارد زيللر إلي جانبين آخرين يبرز فيهما اعتماد تصور ديمقريطس للسعادة على فلسفته الطبيعية وهما : أن إعلاء ديمقريطس من قيمة الفكر النظري فوق الظواهر المحسوسة دفعه حتما في المجال الأخلاقي إلي أن ينسب قيمة ضئيلة إلي الأشياء الخارجية ، إضافة إلي أنه من المحتم أن إيمانه بالنظام الثابت للطبيعة ، أيقظ فيه الاقتناع بأنه كان من الأفضل للناس الراحة والابتهاج في النظام والتناغم .[48]

ولم يكن الابتهاج المساوي للسعادة عند ديمقريطس حالة سلبية من هدوء النفس ، بل كان خاصية ديناميكية للنفس تجعلها قادرة على تحمل الصدمة الخارجية دون أن تفقد اتزانها الباطني أبدا . ليس من المهم ما تملكه أنت من طيبات جسدية وخارجية ، إنما ما تفعله بهذا الذي لديك . ما يهم يوجد داخلك وليس خارجك . إن العامل الذي يقود إلي نجاحك في عيش حياة سعيدة ، هو ما لديك من عقل ، وكذلك الطريقة التي توظفه بها ، وفي هذا إضفاء للطابع الذاتي بشكل قوي على غاية المرء العليا . كما يبرز لنا الطابع ثانية في حقيقة أخرى وهي أن الإنسان لن يتسنى له أن يبلغ الهدوء النفسي إلا إذا كان لديه استعداد داخلي لذلك ، ومن ثم من الممكن أن نسميه " تفاؤلاً إرادياً " ويجعلنا هذا التفاؤل دائما مبتسمين مهما تجهمت الأمور ، واشتدت علينا النوازل ، ويحررنا من الخوف والقلق .[49] ويبرز ثالثة في أنها غاية لا يتم بلوغها إلا بكدح شاق من جانب الإنسان ، ولا تحل بساحة الكسول . كل أسباب السعادة متاحة أمام الجميع ، والخطأ يكون من عند الإنسان عندما لا يستعمل هذه الأشياء استعمالاً سليما . حمق الإنسان هو وحده الذي يقلب الخير شراً فمعظم الشرور تأتي إلي البشر في رأيه من داخلهم هم أنفسهم .[50]

تمثلت السعادة لديه إذن في حالة باطنية تعيش فيها النفس في سلام وهدوء ، خالية من التوترات والمنغصات ، أي أن الشرط الواجب توافره لتحقيق سعادة الإنسان هو الخلو من التوتر ، وجعل أفكار النفس وأفعالها متناغمة . ويتم تحقيق هذا الشرط بالإحجام عن الاشتراك في الأعمال الكثيرة ، سواء كانت خاصة أو عامة ، وألا يتخطى المرء حدوده وقدراته ، فهي تعتمد على حالة المرء الذهنية والسيكولوجية .[51] فلا شك أن النظرة الصريحة في طبيعة الأشياء تعلمنا ـ في

رأي ديمقريطس ــ أن الذرات والخلاء هما الأشياء الحقيقية الوحيدة ؛ وأن الجسم لن يشعر بما حوله إلا عندما يكون حيا ، أن النفس تتحلل تحللاً كاملاً عند الموت ، ووصولك إلي هذا الإدراك يحررك من المخاوف والاضطرابات ، ويجعلك تمتلك نفساً غير متوترة بأي أوهام .[٥٢]

فإذا عن لنا أن نسأل عن الدور الذي من الممكن أن تلعبه البيئة المحيطة بالإنسان في تحقيق سعادته ، نجد أن إجابة ديمقريطس على ذلك تبشر بما سوف تقوله الرواقية فيما بعد بأن البيئة تقف هنا على الحياد ، وذلك لأن الإنسان عنده هو الذي يشيد سعادته بنفسه ، وهي تنبع بدورها من ذاته ، وهو الذي يكيف البيئة المحيطة به على الشاكلة التي يريدها هو أن تكون عليها . كانت البيئة عنده ليست "خيرة" ولا "شريرة" في ذاتها ؛ على عكس ما سوف يفعله أرسطو فيما بعد ، بل تكون كذلك وفقاً لما نفعله نحن بها ، كما أنها ليست مغرضة تروم غاية عليا رغم أنها تكون معقولة . إنها " تلك الأشياء التي نجني من وراءها خيرا ، أو يكون نصيبنا منها شرا ." Fr.172 وفقا لحالة نفسنا ، فحتى الأشياء الطيبة تتحول إلي نقيضها لو حدث اضطراب للنفس بالغ القوة جعلها تضل طريقها .[٥٣] " فعندما لا يعرف المرء كيف يقود الأشياء ويحتفظ بها بكياسة ، فإن الأشياء تتحول من الخير إلي الشر ، وليس من الصواب الحكم عليها لسبب ذلك أنها سيئة ، بل هي خير في حقيقة الأمر ."[٥٤] فلا تُمنح السعادة بضربة حظ بل ينبغي أن تُشيد بواسطة الفن ، والذي هو قادر على تحقيق الاكتفاء الذاتي للإنسان في الحياة ، وهو أمر لا يتم بالإبداع الآلي ، بل من خلال قوة التعليم أيضا تلك التي تعيد بناء الطبيعة ، وتحول اللذة المصادفة إلي سعادة دائمة .[٥٥] نستنتج من ذلك أن ديمقريطس كان يعتقد أن الطيبات الخارجية من الممكن أن تحقق حياة سعيدة لذلك الفرد المتعمق في التفكير العقلاني بصورة لا توفرها للشخص الجاهل ، ومن ثم فإن ما يهم هنا هو ما تفعله أنت من تروي عقلي وليس الطيبات الخارجية .[٥٦] بمقدور الإنسان من خلال عقله وحده أن يفرض نظاماً بديعاً على بيئته يتفق مع جمال الطبيعة العام ، وعبقريته في ابتداع هذا النظام ليست سوى انعكاساً لعبقريتها .[٥٧]

ننتهي بهذا من عرض ماهية السعادة كما يراها ديمقريطس ، ويمكننا أن نستنتج منها أن السعادة كانت لديه حالة فيزيقية أخلاقية للنفس ، وأن لها

جانبين: جانب إيجابي يتمثل في أنها توازن صحي بين مكونات النفس المختلفة ، وآخر سلبي يتمثل في غياب الحركة العنيفة والتوتر عن النفس ، وإقصاء الانفعال وكل ما يعكر صفو النفس ، أما اللذة فليست سببا يقود حتما إلي السعادة ، بل مجرد مظهر خارجي لها ، لا يتحقق إلا بالقدر الذي يتوافق مع النفس وحكمتها .

ب – مقومات السعادة

لكن إذا كانت السعادة كما رأيناها حالة من الصفاء النفسي الناشئ من الابتعاد عن التوتر الباطني ، حالة من "الابتهاج" الناتج من تحكم ذاتي في البيئة المحيطة ، وتكيفها لمصلحتنا الذاتية ، وهو أمر يتطلب منا جهدا جهيدا ، فلكي نصل إليها لابد من توافر مقومات أساسية لدينا تمكنا من بلوغها . فما هي هذه المقومات ؟؟

يمكننا أن نحصرها في ثلاثة مقومات على الشاكلة التالية :

١ – الحكمة ٢ – ضبط النفس ٣ – التربية

فلكي أغدو مؤهلاً وقادراً على أن أحيا حياة سعيدة هادئة لابد أن أكون أنا نفسي قبل ذلك حكيما مترويا في كل أفعالي ، وأن أكون متحكماً في نفسي قادراً على توجيهها الوجهة التي أريدها ، ولن أتمكن من ذلك إلا لو سبقت ذلك تربية قوية تمكنني من الصمود أمام المغريات الخارجية . دعنا نتحدث عن كل مقوم منها بشئ من التفصيل :

١ – الحكمة

للحكمة دورها البارز في اكتساب السعادة ، فقد رأينا من قبل أن تحقيق السعادة لدى ديمقريطس عمل ذاتي في المقام الأول لا يعتمد على الطيبات الخارجية إلا فيما ندر ، لأنها أمور محايدة . يكمن الأمر كله داخل الإنسان ، فلابد أن يكون هذا الإنسان مؤهلاً جيداً نفسياً وعقلياً ، ولن يتحقق هذا التأهل دون الحكمة . الأمر الذي جعل ديمقريطس يعلق آمالاً عريضة عليها ، ووصف الحكمة الهادئة بأنها تعادل كل شئ ."[٥٨]فهي تسيطر على العالم بالقدر الذي يكون به قابلاً للسيطرة ، وتشفي علل النفس بالقدر الذي تكون هذه العلل قابلة به للشفاء . وقال أيضا " يجب أن يتذكر البشر أن العقل الواعي لديهم هو الذي يوجه معظم الأشياء في الحياة "Fr119 لأجل ذلك استحسن ديمقريطس من بين كل الرجال جماعة العقل على جماعة القرابة .Fr.107

كان ديمقريطس على يقين تام بما سوف يردده سقراط بلا ملل فيما بعد بأن الجهل بما هو فاضل هو سبب ارتكاب الظلم .Fr.83 وابتعاد الإنسان عن سعادته بيده ، وأن الرجل " الذي يرتكب الظلم أشد تعاسة من ذلك الذي يعانيه ".Fr.45 ومن ثم فإن الإنسان عليه أن يعالج ما في نفسه من قصور، ويقوي ما لديه من ضعف بالحكمة . إذن يحتاج الرجل لأجل بلوغ السعادة أن ينشغل بالتعقل ، فيعرف حدوده ، وما هو متاح له ، ما هو غير متاح ، فيقصر فعله على الأول ، ولا يمد بصره إلي الثاني ، ومن ثم يقصر طموحاته على قدراته فحسب ، ولا ينشغل بالشهوات الدنيوية الخاضعة لضربات الحظ .[٥٩] إذ لن يحصل " البشر على السعادة من الملذات الجسدية ، ولا من المال ، بل من العيش عيشاً طيباً ، وامتلاك معارف كثيرة ".Fr.170 على الإنسان أن يعتمد على عقله في التفرقة بين الأشياء النافعة له ولسعادته ، وبين تلك الضارة ، ولما كان معيار النفعة كما حدده ديمقريطس من قبل هو اللذة وانعدامها ، Frs188-189 فإن المعرفة هنا تكون ضرورية للحصول على أكبر قدر ممكن من اللذة ، والبعد عن أعظم قدر ممكن من الألم . يوجد داخل النفس عقل (لوجوس) Logos سوف يعودها ــ عندما يتم تدريبه ــ على أن تستخرج سعادتها من داخلها .[٦٠] هكذا نرى أن العقل مقوم أساسي للسعادة عند ديمقريطس كما كان من قبل لدى هيراقليطس ، وإن كان هناك فارق أساسي بين الاثنين ، فبينما يكون لدى هيراقليطس قائما في طبيعة الأشياء كلها ، ويبرز في الإنسان لكونه جزءاً من الطبيعة ، لا ينظر إليه ديمقريطس إلا على أنه قائم في الإنسان وحده . إنه ملكية خاصة به يفضله على الطبيعة ، ويمكنه بالتالي من أن يسخرها لخدمه غاياته الخاصة .[٦١]

إنه لما كان الإنسان هو الحيوان الوحيد المتمتع بنعمة العقل ، فإنه الوحيد القادر على تشييد سعادته بنفسه ، دون أن يركن إلي أحد غيره فلأنه عاقا فإنه مسئول عن تحقيق سعادته ، ولن يتمكن من تحقيقها إلا بمعرفة فن الحياة ، والقدرة على التمييز بين المواقف ، نستطيع بالحكمة التمييز بين الخير والشر ، بين الحسن والقبيح ، نستطيع أن نحدد نوع اللذة الذي يجب إشباعها ليبلغ المرء السعادة ، وتحديد الكيفية التي نستطيع من خلالها تجنب الألم والشر .[٦٢] كما تحررنا الحكمة أيضا من المخاوف التي نتخيل وجودها ، وهي أصلا غير موجودة كالخوف من الموت ، والخوف من الآلهة . فلن نستطيع أن نتحرر من التوتر

والفزع الذي تسببه لنا هذه المخاوف وتنغص بـه سـعادتنا إلا بمعرفـة الخيـر وتوجيه الإرادة إلي سلك طريقه ، ومن ثم لم يكن ديمقريطس مبالغـاً إذن عنـدما قال " إذا كان فن الطب يبرئ من أسقام الجسد ، فإن الحكمة تشفي الـنفس مـن آلامها ."[١٣] لم يكن مبالغا لأن الحكيم بمقدوره أن ينمي فكره ، ويحرر نفسـه مـن الانفعالات والخرافات ، ويبحث بالتأمل العميق عن السعادة العقلية التي في متناول القدرة البشرية . كانت الحكمة لذلك تفوق لدي ديمقريطس الثـروة ، "لا يمكـن لثروة أو لسلطة مهما كان حجمها أن ترجح كفة اتساع دائرة العلم .

يوصينا ديمقريطس بضرورة أن نختار خيرات النفس وحدها ، غير أننـا لـن نستطيع أن نحسن الاختيار إلا بالاعتماد على هدي العقل وحده ، إنه الذي يوجـه معظم الأشياء في الحياة ، ولن يصل البشر إلي السعادة إلا بضبط النفس العقلي . ومن ثم ينظر ديمقريطس إلي النفس على أنها الحارس الأمين الحامي للإنسان في كل شئونه ، لأنها الوحيدة التي تختار الاختيار الصائب بناءً على معرفـة بـالخير .[١٤] وهو رأي سوف يردده أفلاطون بلا تغيير يذكر فيما بعد . وإذا كانـت الحكمـة أساس لا غنى عنه للسعادة في الحياة ، فإن السؤال الذي يفرض نفسه هنا هـو : ماذا كان ديمقريطس يعنى بالحكمة هنا ؟؟

ينص ديمقريطس في أكثر من شذرة له على أن الحكمة المقصودة في كلامه هي " إدراك ما يكون ممكنا في حدود ما يكون ضرورياً ."[١٥] إنها في المقـام الأول معرفة واعية وناقبة بالأفعال والأنشطة التي بمقدورها أن تسير معظم أمور الحياة . ويقترب سقراط من هذا المعنى كثيرا في شعاره " اعرف نفسك بنفسك " . لقـد كان ديمقريطس يقصد بالحكمة هنا المعرفة اليقينيـة بسـير الطبيعـة وقانونهـا الضروري العام ، والالتزام حرفيا به ، لقد كان العمل والسير وفقا لقانون الطبيعة شرطاً ضرورياً للسعادة ، ومن ثم يتخذ الإنسان من خلال الحكمة الضرورة حليفـاً له ، فينهض ويختار أفعاله داخل حدود الممكن الطبيعية هـذه ، Fr. 185 فتقـوم الحكمة بوصفها موجه باطني بتهذيب الرغبة وتجعل الأمل نفسه معقولاً .[١٦] لقـد كانت الحكمة لديه ثلاثية الأبعاد : أن تفكر تفكيراً كاملاً وأن تتحدث حديثاً دقيقـاً ، وأن تؤدي وظيفتك الطبيعية بأعظم درجة ممكنة من الكمال .[١٧] أمـا مـن يعتبـره ديمقريطس أحمقاً فهو ذلك الذي يقف على الطرف النقيض للحكيم السابق ، حيث لا يتعلم حكمة الطبيعة ، ولا يتخذها هادياً له في بحثـه عـن السـعادة ، فيضـل

الطريق حتما . إنه يقرر " أنه لأحمق لن يحصل علـى متعـة مـن الحيـاة ، لأن معركته ضد الضرورة خاسرة ، وكل جهوده ضدها لا طائل من وراءها ، وتقربـه أكثر إلي النهاية المقررة له مثل الشيخوخة مثلا ."[٦٨]ويقول أيضا " من الصعب أن تجد مثالاً أعظم لإنسان يكون أسوأ عدو لنفسه من الأحمق الـذي يتجـاوز الحـد المقرر له بالطبيعة ."F.294 وينتهي إلي القول بأن " مـا يشـكل الحمقـى هـو ضربات المصادفة ، أما ما يشكل أولئك الذين يفهمون هذه الأشـياء فهـي ثمـار الحكمة ."Fr.178 لقد كانت الحكمة التي قصدها ديمقريطس مفهوماً عملياً بأعظم معنى تحفيزاً ، مفهوما واسعا بالدرجة التي تكفـي لأن تـنظم كـلا مـن الحيـاة الخارجية والتصور الباطني الذي يرسم لنا حياتنا .[٦٩]

نقص الحكمة هو الذي يجعل الحمقى محرومين من الحياة السـعيدة ، إنهـم " يرغبون فيما هو غائب ، مهملين ما يكون حاضراً ، وما يكون ماضياً ، رغـم أن هذين هما الشيئان الأكثر إثماراً ."[٧٠]فإذا كنا هكذا نسعى بشكل طبيعي وراء اللـذة فإننا نُحرك هكذا بوصفنا بشر بفعل العقل الذي يجعلنا نعدل من الحياة فنجني اللذة فيما هو أخلاقي ومفيد ، مما يقود إلي حياة أكثر سعادة مما يقود إليه السعي غير المتروي وراء اللذات العارضة . من يملك الحكمة مـن الصـعب أن يـأتي يـوم يتعرض فيه للوم أو التعنيف من أي لون ، فهو في حصانة تامة من كل ذلك ، هذا بفضل حصافته التي تنجيه من مواطن المؤاخذة . وذلك لأن الحكمة تعمل كموجـه باطني داخل الإنسان ، فيصحى بمقدور النفس الحكيمة أن تغير مـن ذاتهـا عنـد إدراك الحدود الطبيعية التي يجب أن تتوقف عندها ، وبدون عملية التكيـف مـع الواقع هذه لن يكون هناك " ابتهاج" ، و لن تكون هناك سعادة بالتالي ، وهذا مـا يمكن رؤيته بوضوح في الأحمق الذي يعيش ومع ذلك لا يحصل على أي استمتاع بالحياة .[٧١] غير أن وظيفة الحكمة ودورها في تحقيق السعادة لا تقتصر فحسـب على تمكين الإنسان من حسن اختيار أفعاله ، وتوجيهها نحو الخير دائما ، بل أن لها دوراً إصلاحياً . إن بمقدورها أن تحول الأشياء الفاسدة إلي أخرى خيرة تسهم في سعادة الفرد . كما أن الجهل بكيفية استخدام الأشياء الاستخدام الصحيح مـن الممكن أن يفعل العكس فيحول الأشياء الخيرة إلي أشياء شريرة .[٧٢] مـا يسـاعد الإنسان على بلوغ هدوءه النفسي السعيد هو تمييز حكيم بين القيم القائمة أمامه ، وتحديد متبصر للرغبة يقضي على التطلع إلي ما يفوق قدرة الإنسان أن تملكـه .

وقد أدى تأكيد ديمقريطس الدائم على ضرورة التحلي بالحكمة من أجل بلوغ السعادة إلي أن يطلق معاصروه عليه هو نفسه لقب " الحكمة" نفسها .[٧٣]

إن من يتأمل معظم شذرات ديمقريطس الأخلاقية يجدها تؤكد على أن العقل والحكمة مفتاح الحياة السعيدة ، بل إنه سوف يجد في تلك التي لا تربط بشكل مباشر بين توظيف العقل وبين العيش بشكل أكثر سعادة ــ عزفاً دائما على وتر واحد هو وتر أهمية استعمال الإنسان لعقله في تنظيم حياته .[٧٤]صحيح أن الكثير من هذه الشذرات يبدو من الوهلة الأولي أشبه ما يكون بنصيحة دارجة ، ولكن حتى إذا كان هذا هو الانطباع الأول الذي تحدثه كشذرات مفردة ، فإن الانطباع التراكمي لها معا هو انطباع فلسفة أخلاقية لديها الأسس للاعتقاد في أن السعادة هي ثمرة تفكير المرء العقلي وليس ثمرة للعوامل الخارجية . ففي رأيه يوسعنا أن نتعلم كيف ننظم أمور حياتنا بطريقة عقلية مترويه مما يقودنا إلي السعادة حتما . يحصل البشر على السعادة إذن من الاستقامة والحكمة ، لذلك لم يتردد ديمقريطس في وصف أولئك الذين يتوقون إلي ما هو غير قائم ، مهملين ما هو بين أيديهم بأنهم حمقى سقيمو التفكير ، وينتهي إني التأكيد على أن آمال أولئك المستقيمي التفكير آمال قابلة للتحقق ، في حين أن آمال أولئك الحمقى مستحيلة .[٧٥]الأمر الذي دفع ديمقريطس إلي تحديد أسباب تعاسة هؤلاء الحمقى بأنها : عبثية ما يفعلونه من جهود ، حيث أنهم يقاومون الضرورة وهي مقاومة بلا طائل ، لأن كل جهودهم في وجهها تقريبهم أكثر نحو النهاية المقدرة عليهم . كما أن البحث وراء السراب يحرمهم من الراحة العائدة من الأشياء المريحة التي تعرض لهم في طريقهم[٧٦] " فالرغبة في الأكثر تفقد ما يوجد في اليد من قيمته ."Fr.224إننا لو وازنا بين الحكمة وبين الخيرات المادية كالشرف والثروة والملكية لوجدنا أن هذه الطيبات المادية سوف تغدو أشياء لا قيمة لها بدون الحكمة . وذلك لأنه عندما يغيب العقل لن يكون بوسع الإنسان معرفة كيف يستمتع بالحياة . وعلى ذلك ينبغي على الإنسان أن ينصت إلي نداء العقل والحكمة ، فلا يختار كل لذة تعرض له ، وإنما يختار تلك التي تتعلق بالجميل ، وذلك لأن أعظم اللذات يتم جنيها ــ كما يقول ــ من التأمل في الأعمال الجميلة ، وجمال الجسد الخالي من العقل ليس إلا جمالاً حيوانياً .Fr.194 ومن هنا طالب ديمقريطس بأن يهب الإنسان عناية بالنفس أعظم من تلك التي يخصصها للجسم ، إذ بهذه الطريقة وحدها يمكن أن

يتعلم كيف يبتدع سروره من داخل نفسه .[٧٧]

ينبغي علينا من أجل بلوغ السعادة أن نكون ماهرين في تقدير وتمييز القيمة الخاصة باللذات المختلفة ، فنختار منها ما يسهم في تحقيق هدوءنا النفسي ، ويبعد عنا المخاوف والتوتر ، ونهمل تلك التي سوف يترتب عليها العكس . سوف تحررنا الحكمة من الاضطراب والذعر والحيرة ، وذلك لأن تحررنا من المخاوف يرتكز في التحليل الأخير على الحكمة ، لأن الخوف نابع من تصورات خاطئة حول الطبيعة والألوهية والحياة الأخروية التي ينبغي أن تصحح بالحكمة . ولن تكون سعادة الحياة أقرب نوالاً إلا بعد أن نقصي المخاوف الخاطئة ، وأشكال الندم الحمقاء بواسطة التفكير السديد .[٧٨] كما سوف تحررنا الحكمة من الطمع ، والتطلع إلي ما لا يحق لنا التطلع إليه ، سوف يختار الحكيم لذاته بعناية ، ولن يولى أدني اهتمام بموضوعات الحسد والانبهار ، بل سوف يبدو ما يملكه عظيما في نظره مهما كان صغيراً ، ولن تعاني نفسه من المرارة التي يجلبها معه الاشتهاء لما هو أكثر .Fr.191 أما من يعيش على خلاف ذلك فسوف يخسر سعادته ، ويتكبد المعاناة والشقاء .[٧٩]و أكد ديمقريطس في حكم جازم لا استثناء له بأن " هذا الذي لا يعرف كيف يقود الأشياء ، ويحتفظ بها في كياسة ، فإن الأشياء تتحول من الخير إلي الشر أمام الناس ، غير أنه من الخطأ الحكم على هذه الأشياء بأنها سيئة ، بل هي خيرات ، كما من الممكن أن يستخدم الأشياء الطيبة لصد تلك السيئة ."[٨٠]

ويضرب ديمقريطس لنا مثلا على الكيفية التي يمكن أن تتعامل بها الحكمة مع الشئ الضروري الذي لا يمكن الفرار منه مثل الشيخوخة في الشذرات من ٢٩٤ حتى ٢٩٦ حيث يسلم في البداية بالخسائر التي نتكبدها من وراء الشيخوخة ، مثل ضعف الأعضاء ووهنها ، ولكن مع الحكمة تغدو الشيخوخة مفعمة بالسعادة الكاملة ، فعندما تُعاش الحياة عيشاً طيباً يغدو السن المتأخر مفضلا على الشباب ، حيث تكون السعادة هنا أقرب نوالاً شريطة إقصاء المخاوف الخاطئة وأشكال الندم بالحكمة .[٨١] لذلك وصف الحكمة بأنها زهرة السن المتقدم ، وذلك لأن كل الفضائل تقوم عليها ، فالرجل الذي يتصرف بالحكمة يغدو شجاعاً مستقيماً مهما كان سنه، لأن قوة الشخصية هي التي تبرز تميز الإنسان . غير أن ديمقريطس يقع هنا في عيب التمييز العنصري ضد المرأة مثله في ذلك مثل معظم فلاسفة العصر القديم ،

إنه يطالب في عداوة كئيبة بضرورة ألا تشارك المرأة في الحكمة .[٨٢] وقد كانت مبرراته لهذا الاستبعاد للنساء عن مملكة العقل مبررات واهية ، حيث تقرر أن النساء عاجزات عن استعمال عقولهن ، كما أنهن لا يتحدثن حديثاً طويلاً رزيناً ، وكلها مبررات غير مقنعة لنا .[٨٣]

يطالبنا ديمقريطس بأن نمحو بنور العقل التعاسة الغامضة التي تسيطر على نفوسنا المخدرة بالمخاوف وأشكال التوتر والقلق التي لا أساس لها . يطالبنا بأن نتخلى عن ملذات الجسم ، ونختار لذات النفس ، لأنها الأعظم دواما وألوهية . إن التكيم هو الذي يعود نفسه على جني اللذة من داخل عقله ، وليس بالاعتماد على الأشياء الخارجية . وأنقى لذة من بين كل اللذات لذة البحث العلمي ، لأن الممتلكات تفنى ، وذكر الانتصارات يتقادم مع الزمن ، في حين لذة الوصول إلي الحقيقة لذة دائمة إلي الأبد ، لذلك لم يبالغ ديمقريطس عندما قال " إنه لأفضل لي أن أكتشف برهانا واحدا في الهندسة ، من أن أصبح ملكا على عرش الفرس ." وذلك لأن الذي يسعى وراء سعادته في هذه الأمور السامية يحطم القيود الضيقة للزمان والمكان ، ويغدو العالم كله مفتوحا أمامه، "لأن موطن الروح الخيرة هو نظام العالم أجمع ."[٨٤]

٣ – الاعتدال وضبط النفس

الأساس الثاني الذي تقوم عليه السعادة هو المبدأ الذاهب إلي ضرورة أن يعيش الإنسان حياته ضابطاً لنفسه معتدلاً . لقد شدد ديمقريطس على الدور الكبير الذي يلعبه الاعتدال في جلب السعادة على الإنسان في الكثير من الشذرات : حيث يقرر أن السكينة " تأتي إلي البشر بفضل اللذة المعتدلة ، والاعتدال في كل أمور الحياة ، أما صور الإفراط ، وكذلك أشكال التقتير فتقود إلي التغير ، وتسبب اضطرابات عظيمة في النفس ." ويقول أيضا " إن الإنسان الذي ينوي أن يكون سعيدا ، لا يجب أن يفرط في نشاطه : سواء من الناحية الفردية أو العامة ، ويجب أن يختار في كل أعماله ما هو متناسب مع قدراته وطبيعته " وأيضا " الاعتدال أمر جميل في كل شئ ، أما الإفراط وكذلك التقتير فلا أحبهما ."Fr.102 ويجعل الاعتدال حلية لكل شئ جميل .[٨٥] إن هناك مسرات عظيمة تعود من عملية تأمل الأعمال الجميلة Fr.194 ويقول " وينبغي أن نختار الملذات التي تتخذ

الجميل موضوعاً لها ."Fr.207 وهي استمتاعات العقل وليس متع الجسم.fr.146 وحتى لو حدث وحل الحظ السعيد بساحة المرء مما يدفعه إلي الإفراط في المظاهر الكاذبة ، فلا يجب عليه أن يولي ذلك عناية كبيرة ، ولا أن يسعى وراء الأشياء التي تفوق قواه ، لأن امتلاء معقول خير من الامتلاء المفرط.

فإذا كان ديمقريطس قد تحدث في الأساس الأول عن المعرفة ، فإنه يتحدث هنا عن الإرادة ، ومن ثم فإن السعادة تتمثل عنده في عملية معرفة الخير ، وتوجيه الإرادة إلي سلك طريقه ، وقد أطلق ديمقريطس على هذا النوع من المعرفة المقترن بالإرادة اسم " ما يجب عمله " ، وهو أمر ينشأ عن تهذيب النفس حتى تنبع أفعالها من تلقاء نفسها . إن النفس القوية هي التي تكبح زمام الرغبات ، ولا تعميها الشهوات ، ومصدر قوة النفس في الاعتدال .[٨٦] بل أن ديمقريطس يوصينا بمراعاة الاعتدال حتى ونحن نمزح مع الآخرين .[٨٧]

يؤكد ديمقريطس هنا بشكل رائد لأرسطو ونظريته في الوسط الذهبي على أن سر السعادة يكمن في الاعتدال ، وقصد به اتزان باطني يجعلنا نجني السعادة داخل أنفسنا . وأن آفتها هو الإفراط والتقتير ، وذلك لأن الاعتدال يزيد من المتعة ، ويجعل اللذات أكبر .Fr.211 أما الإفراط فيجلب القلق والتوتر الدائم ، وذلك لأن سرعة المتعة وقصر وقتها يجعل الإنسان في قلق دائم يريد المزيد منها بلا شبع أبدا . وهو عكس ما كان يطلبه في البداية ؛ فهو لم يقبل على اللذة منذ البداية إلا وهو على يقين من أنه سوف يجني الراحة النفسية ، غير أنه لم يجد بين يديه سوى السراب . وهنا نسأل ديمقريطس : كيف يكون الإفراط في الهذات مدمراً للسعادة الإنسانية ؟ وتأتي إجابته بأن صور الإفراط تقود إلي اضطرابات عظيمة في النفس لأن النفوس التي تُحرك على مساحات واسعة لن تتمتع بالسكينة ولا بالهدوء ، إذ يصاحب الإفراط انفعالات شديدة ، والتي بدورها تعرض النفس لحالة من الاضطراب يتم فيها تغير وتبعثر التوازن ، وذلك لأن الحركة العنيفة التي تتعرض لها النفس تغير من نظام وترتيب ذرات النفس داخل الإنسان ، مما يقضى على تناغم النفس ، فيقضي بدوره على هدوء الإنسان وراحته .Fr. 191 ولا يتحدث ديمقريطس هنا بأسلوب استعاري ، بل هو يصف وصفاً حرفياً لما يراه يحدث للذرات التي تتألف منها النفس .[٨٨]فهذه النفوس المتحركة حركة عنيفة لا تكون في حالة توازن كامل ، ولا في أرواح سليمة ، حيث يحدث فيها تشتيت

للذرات المادية التي تؤلفها فتبتعد عن الوسط .[٨٩] ويدل كلام ديمقريطس السابق دلالة واضحة على أنه كان وهو يكتب عن السلوك وعن غايات الحياة ليس ناسياً على الإطلاق لنزعته المادية الطبيعية ، وإن كانت كل إشارات ديمقريطس في هذا الصدد لا تكفي ــ في رأي جثرى ــ لبيان الحد الذي توغل فيه ديمقريطس في هذا الطريق ، ولا إلي أي حد كان نجاحه في بناء تكامل نسقي بين فلسفته الطبيعة ونظريته في السعادة .[٩٠]

أما سؤال كيف نحقق هذا الاعتدال داخلنا ؟؟ فإن إجابة ديمقريطس تتمثل في أننا ينبغي علينا لتحقيقه أن نلتزم في كل اختياراتنا وكذلك عزوفنا "بحكم الزمان" أي بالخير الذي يحدده قانون الطبيعة لنا ، فلا نقبل من المتعة إلا ما يتفق مع الطبيعة ، حيث يقرر " لأنهم يطأون بأقدامهم حكم الزمان فإن متعهم تكون سريعة وقصيرة ."fr.236 وأنه " لو حدث ووطأت بقدميك على النسب انمقررة فإن أعظم الأشياء حلاوة سوف يضحى لديك أعظمها مرارة ."[٩١]ويقرر في شذرة أخرى أن العدالة تتمثل في فعل المرء لما ينبغي فعله ، أما الظلم فهو الامتناع عن فعل ما ينبغي وركنه جانباً . Fr.256 وينتهي ديمقريطس إلي أن الخير الحقيقي شئ متماثل لدى البشر جميعا .[٩٢]والواقع أن رأي ديمقريطس السابق ليس سوى انعكاسا لفكره الطبيعي الذي أكد فيه على تحكم الضرورة وسيطرتها على الكون ، إنها التي عينت سلفا كل الأشياء الكائنة والتي تكون ، والتي سوف تأتي ، كما أنه انعكاس في الوقت نفسه للفكر الطبي الضارب بجذوره في القدم ــ وقد أخذ به ديمقريطس نفسه ــ ذلك الذي كان يعتبر الصحة توازن بين قوى الجسم ، وأنه عندما يحدث زيادة أو نقص في هذه القوى ينفرط عقد هذا التوازن ، فيعاني الإنسان من المرض العضوي أو العقلي على السواء .[٩٣]

يوصينا ديمقريطس من أجل تحقيق الاعتدال الذي هو سر السعادة بضرورة مراعاة قانون الطبيعة الضروري ، فلا يتم ترك الحبل على غارب ، وإنما يجب الالتزام بالخير الطبيعي ، والذي هو أمر مشترك بين الناس جميعا . سوف تكون السعادة من نصيب الإنسان الأعظم كمالاً ومعرفة بكيفيةتحقيق الاعتدال والتوازن بين شهواته وأفكاره ، وفي تمييز المفيد منها عن الضار ، وتجنب ما هو خاطئ ، وغير لائق . فإذا حدث ورأينا ديمقريطس بعد ذلك يجعل الاعتدال في تقييد أفعال المرء ورغباته على تلك المتطابقة مع طبيعته ، مدراته الشخصية[٩٤] وقال " إن

الإنسان الذي ينوي أن يكون سعيدا لا يجب أن يفرط في نشاطه سواء من الناحية الفردية أو العامة ، ويجب أن يختار في كل أعماله ما هو متناسب مع قدرته وطبيعته ." Fr.74 فلا يجب أن نفهم من ذلك أن ديمقريطس يقع في تناقض مع نفسه حيث سبق أن أكد على ضرورة الالتزام بقانون الطبيعة ، لأن ديمقريطس مثله مثل كل السابقين على سقراط كان ينظر إلي الطبيعة البشرية كجزء من طبيعة الكون ، وأن القوانين التي تسري على هذه الأخيرة تسري على الثانية بالتبعية ، أما من يعجز عن تحقيق التوازن في شهواته ، فإن هذا يقود إلي توتر باطني يقلص من حجم سعادة هذا الإنسان .

وإذا كان الحيوان المحتاج يعرف كم يحتاج من الأشياء ، فإن الإنسان لنهم لا حدود لرغباته ، إنه لا يعرف لحظة التوقف ، بل دائما ما يريد أكثر ، فيحطم سعادته الخاصة هنا ، فيكون الحيوان أحكم من الإنسان . لذا يحذر ديمقريطس هذا الإنسان بقوله " إذا لم تُوقف الرغبة في الممتلكات المادية بواسطة القناعة ، فسوف تسبب تعاسة أكبر من تلك التي يسببها الفقر المدقع ، لأنه كلما زادت الرغبات ، كلما كبرت الحاجات التي تخلقها ." ويقول أيضا "من لا يستطيع أن يقاوم المال لن يصبح عادلا على الإطلاق ."Fr.50 ومن ثم لم يتحصل المرء على الراحة التي ينشدها .[٩٥] بل سوف تغدو حياته بجملتها جريا لاهثا وراء شهوات لا تُروى ، ورغبات لا تنتهي . إن اللذة العائدة من الإسراف في الطعام والشراب لذة سريعة ، في حين أن نتائجها المؤلمة كثيرة ، فضلا عن ان هذه الرغبة عندما تُشبع سرعان ما تعود فتلح من جديد . إن الثمن الذي يدفعه البشر في سبيل الحصول على هذه المتع هو الصحة ، ثم ويا للعجب يدعون الآلهة بعد ذلك أن تعيدها إليهم ، غافلون عن أن اكتساب الصحة أمر يعتمد على أنفسهم ، ويتمثل في الاستمتاع المعتدل .[٩٦]

يحارب ديمقريطس في تصوره السابق النزعة التي تدعو إلي الإسراف ، وفي الوقت نفسه يحارب النزعة التي تدعو إلي الإحجام التام عن الملذات ، إنه لا يدعو إلي الفجور واللذة المطلقة ، كما لا يدعو إلي حياة الرهبنة والتقشف ، لأن الحياة التي تخلو من المتعة والانبساط أشبه ــ كما يقول ديمقريطس ــ بسفر طويل بلا فندق للراحة ." Fr.230 وتتمثل فضيلة النفس عنده في حسن اختيار الوقت المناسب للمتعة ، مثلما تفعل في الصوم والاقتصاد .[٩٧] أساس السعادة هو

حسن اختيار اللذات ، واللذات الحقيقة هي تلك التي تأتي من الاعتدال ، وذلك لأن الإفراط والتقتير معا يزعجان النفس ، ويحطمان اتزانها . هنا يفرق ديمقريطس بين اللذة و" السرور " مبشراً بما سوف يفعله أبيقور فيما بعد من تفرقة بين اللذة الحسية الفجة وبين " الأتراكسيا " وهي لذة الهدوء النفسي . فليس كل لذة مطلوبة لذاتها في رأي ديمقريطس ، بل ينبغي أن نختار من بين كل اللذات تلك التي تجلب التمتع بالسرور الباطني ، ونعرض عما يتعارض معه .fr74 ولن نصل إلي هذا إلا بالاعتدال . فلا ينبغي أن نجري وراء كل لذة بشكن طائش ، فاللذات التي في غير أوانها ، وفي غير محلها تنتج آلاماً .fr71 فهل يتناقض ديمقريطس مع نفسه هنا وهو الذي أكد على أن " الحد الفاصل بين المفيد وغير المفيد هو اللذة وانعدامها ." Fr.188 وأن الحدود الفاصلة بين ما هو متفق مع طبيعتنا وبين ما لا يكون هي الحدود الفاصلة بين المتعة ونقيضها ؟؟ الواقع أنه لا يوجد تناقض طالما أن السعادة عنده تثبيت لحالة الهدوء الباطني في النفس ، وكل ما يقود إلي ترسيخ هذا الوضع يكون مفيداً ، وليست اللذة عنده سوى شارة تدلنا على وجود هذا الوضع في النفس ، وليست معياراً نقيم به الأشياء .[٩٨] ويتفق "فلاستوس" في أخذها بهذا المعنى مؤكدا على أن اللذة عند ديمقريطس علامة مرئية تعبر فحسب عما يقرره المعيار ، إنها مظهر خارجي لما يتفق معنا ، شارة تبين مساحة الفعل التي تتفق مع الوجود السعيد للنفس .[٩٩] وعلى ذلك فبينما قد يكون الشعور باللذة مفيدا ، وقد لا يكون ، فإن السرور نقبله على أنه شعور طيب بالمعنى الموضوعي لذلك . كما كان ديمقريطس في ذلك مبشراً ب "فن الحساب" الذي " الذي سوف يجعل أفلاطون أستاذه سقراط البطل المدافع عنه في " بروتاجوراس " .[١٠٠]

وإذا كان ديمقريطس يطالبنا لبلوغ السعادة بالالتزام بالاعتدال في طلب اللذة ، فإنه في الوقت ذاته يعارض بشدة على نحو ما سوف يفعل سقراط الطموح غير المقيد ، والطمع فيما هو في يد الغير ، والغرور الأعمى ، حيث ينصحنا لراحتنا النفسية أن نقارن أنفسنا بمن هم أدنى منا ، وليس بمن هم أعلى مكانة منا ، وعندما نلتزم بهذا المبدأ سوف يبدو لنا ما نملكه عظيما ومحسوداً عليه ، ولن تعاني النفس من التعاسة التي يجلبها اشتهاء ما هو أكثر . على الإنسان ألا يولي الانتباه إلا إلي تلك الأشياء التي تكون متاحة ، وقابلة لأن تُشبع بما يمتلكه من

إمكانيات .[١٠١] " فأحمق ذلك الذي يرغب فيما لا يملك ، زاهداً مستخفاً بما يملك ." فحياة الإنسان قصيرة وفقيرة ، ومعرضة لمائة تغير ، ومن يدرك هذا يقنع بالممتلكات المعتدلة ، ولن يحتاج إلي أي شئ يزيد على الضروريات اللازمة لسعادته . إن ما يحتاجه الجسم هو ما يسهل الحصول عليه ، أما ذلك الذي يسبب الاضطراب والمعاناة فهو مجرد حاجة متوهم الاحتياج إليها . وكلما كثر ما يحسده الإنسان كلما كثر ما يحتاج إليه ، والنهم أسوأ من الفقر . في حين أن الأمر على العكس : من يرغب القليل سوف يعاني القليل .fr.219 وكما حذر ديمقريطس من الحسد والحقد ، فإنه يحذر في الوقت نفسه من الجشع والبخل ، لأن البخلاء كما يقول يتصرفون في حياتهم وكأنهم سوف يعيشون إلي الأبد وهذا محال .[١٠٢]

ويقودنا ما سبق إلي فضيلة أخرى ينتجها الاعتدال وهي فضيلة "ضبط النفس" تلك التي أكد عليها ديمقريطس في أكثر من شذرة ، حيث قال " قهر الإنسان لنفسه هو الانتصار الأسمى ." وقال " إنه لإنسان قوي ذلك الذي ينتصر على شهواته ، وليس على أعدائه فحسب ." fr.214 ويلمح بذكاء إلي أن بعض الرجال ممن يحكمون مدنا يُستعبدون بواسطة النساء .fr236 ويقرر أن " الشهوة القوية إلي شئ بعينه تعمي النفس عن رؤية الأشياء الأخرى ، وهي علامة دالة على طفل وليس على رجل ."fr70 ويعترف بأنه ليس من السهل أن يسيطر الإنسان على غضبه ، غير إنه يحسن الظن في الإنسان القوي العاقل ويؤمن في مقدرته على أن يكون سيداً على نفسه .[١٠٣]لذا اعتبر ديمقريطس أنه من الطيب منع الظالم عن ظلمه ، فإذا لم يكن بالإمكان ذلك فمن الطيب ألا ترد عليه بظلم مثل ظلمه .fr.38 وهو في هذا رائد لمبدأ سقراط " تعرض الإنسان للظلم أفضل من ارتكابه له ".

وقد دفع إيمان ديمقريطس في الدور الكبير لفضيلة ضبط النفس في تحقيق السعادة إلي أن يضع أهمية كبيرة على مسألة الضمير في تقييم الأفعال من حيث الخيرية أو الشر ، حيث يقرر أن الخير " لا يتمثل في مجرد الإحجام عن فعل الظلم ، بل وأيضا الإحجام حتى عن مجرد الرغبة فيه ." وأيضا " لا يكون المرء شريفاً بفضل ما يفعله فحسب ، بل وأيضا بفضل ما يراوده التفكير فيه ."[١٠٤]ومن ثم ينتهي إلي أن وظيفة العقل في الإنسان تتمثل في حراسة النفس من الظلم الوشيك الوقوع .fr193

لكي يحافظ الإنسان على نفسه من التهور الطائش عليه أن يتحاشى الولع بالحروب ، لأن المرء في تخطيطه لإيذاء عدوه يغفل عن رؤية مصلحته الشخصية fr.237. كما أن عليه أن يتجنب الدخول في مجادلات مع محبي الجدل ، ولا يتشفى في تعاسات جيرانه . إن رجلاً لديه أسبابه الشخصية للسرور لن يكون بحاجة لمثل هذا السرور الزائف ، fr.283 ومهما كانت ظروف الحياة التي يتعرض لها سوف يتحملها بصبر ورضي تام .[١٠٥] fr.289 ويوصي بالابتعاد عن اشتهاء المكاسب الظالمة ، لأن الثروة العائدة من عمل شرير تجعل العار والفضيحة أعظم .fr.218 وعلينا بالجلد والشجاعة ، فهي تقلص من حجم النكبات .fr.213 وبوجه عام فإن إنجاز الأعمال الطيبة يجلب السعادة ، في حين أن الرجل الظالم الذي يهمل واجبه يغدو ممتلئاً بالقلق . أما الرجل السعيد والذي لا ينفعل إلا بما هو مشروع وعادل يحيا في سلام بالليل والنهار ، كما أنه قوي خالي من القلق والخوف .fr.174

كما أن مراعاة الاعتدال تقتضى أن يكون لدى المرء ضميراً يقظاً بنفس القدر الذي تقتضى به الحكمة . أي أن يكون الإنسان فاضلاً باطنياً ، حيث ينبغي أن يكون الباعث على الاعتدال أرفع من الخوف من العقاب ، يجب أن يكون ضمير الشخص الداخلي وشعوره بالواجب ،fr.41 فلا يجب أن يكون احترام الإنسان للناس أعظم من احترامه لنفسه ، ولا يكون أكثر ميلاً لفعل الشر عندما يعرف أن أحداً لن يكتشفه منه لو كان يعرف أنه سوف يتم كشفه ، ففي كل الأحوال ينبغي أن يكون احترم المرء لنفسه قائما في داخله مقام القانون ، ومانع إياه من فعل أي شئ فيه تجاوز . إذ لابد أن يكون إحساس الإنسان بالخجل من نفسه أمام نفسه أعظم من إحساسه به أمام كل الناس . fr.84 ويؤكد على أنه " لا ينبغي عليك أن تقول أو تفعل أي شئ مشين ، حتى ولو كنت بمفردك ، لا يطلع عليك أي إنسان ، بل تعلم أن تحس بالخجل أمام نفسك أعظم من شعورك به أمام الآخرين fr.244". هكذا تتم معاملة الضمير على أنه رد فعل ينبغي أن تشعر به داخل نفسك نتيجة لعمليات تأمل ذاتك ، وقد أطلق عليه " برنارد وليم " اسم " الآخر القائم في الذات" The internalized Other حيث نجد هذا الآخر في هذه الشذرات وقد تحول إلي ذات باطنية كبديل لردود أفعال الآخرين .[١٠٦] وديمقريطس بكلامه هذا يرد على بعض السفسطائيين المعاصرين له مثل كريتياس الذين

افترضوا أن البشر اخترعوا الآلهة لمنع أشكال اقتراف الجريمة في السر .[١٠٧] ويبدو أن ديمقريطس هنا كان المفكر الأول الذي جعل "عذاب الضمير" الأساس الجوهري لمحاولة اشتقاق الأخلاق من المصلحة الذاتية ، فكان بذلك في طليعة طابور طويل سار فيه آخرون من أمثال "بطلر" وجون ستيوارت ميل .[١٠٨]

حقا كانت المناداة بضرورة مراعاة الاعتدال في كل شئ حكمة قديمة مكتوبة على معبد دلفي ، وتضرب بجذورها في الرأي التقليدي حول علاقة الآلهة بالإنسان ، وذلك لأن في الطمع فيما هو أكثر نسيان من الإنسان لطبيعته الفانية ، وإيقاظ لغيرة الآلهة منه . إلا أن ديمقريطس يفرض الاعتدال لسبب مختلف ، فالحكيم يختاره ليس خوفا من غضب الآلهة عليه ، بل خوف من الألم والتعاسة والتنغيص على سعادته .[١٠٩] وتتطلب عملية مراعاة الاعتدال هذه الحكمة والتبصر ، فهي توازن مستحيل بلوغه بدون المعرفة والعقل ، وعلى ذلك تربط نظرية ديمقريطس الأخلاقية مذهبه في اللذة بالنزعة العقلية والتي سوف تبرز بوضوح لدى سقراط ، إنها النزعة التي تفسر السلوك الخاطئ على أنه نقص في المعرفة .[١١٠] وهو ربط أكد عليه ديمقريطس عندما قال " أن الشخص الذي يلتزم بالاعتدال في عاطفته ، ويسر برؤية الأشياء الجميلة ، شخص ترسخ فيه العقل وتعمق ، وعود نفسه على أن تستخرج الملذات من باطنها ."[١١١]

٣- التربية

أمن ديمقريطس بأن الفضيلة الأخلاقية التي تقود إلي السعادة قابلة للتعلم ، إذ بوسع المعلمين أن يغرسوها في نفوس الشباب على عكس ما سوف ينادي به سقراط فيما بعد . لقد كانت الفضيلة عنده شيئاً مكتسباً وقابلة للتعلم للغير " يصبح الكثيرون خيرون بالتدريب لا بالطبيعة ." وإذا كانت الحكمة تعادل عنده كل شئ كما رأينا ، فلا يمكن اكتسابها بدون التعلم .fr.59 أما الزمن فلا يعلمنا أن نغدو حكماء ، بل التربية المناسبة والطبيعة . ومن ثم فإن علة الفعل الخاطئ هي الجهل بالأحسن .fr.83 ونحن نكتسب سائر ضروب الفضيلة بالتربية ، تلك التي يجب أن نأخذ الطفل بها من الصغر .[١١٢] بل أن التربية في تأثيرها على الإنسان أنها تعيد بناء طبيعته من جديد بالمعنى الكامل لذلك ، يقول " إن الطبيعة والتدريس شئ واحد ، ذلك لأن التدريس يعيد تكوين الإنسان ، وبإعادته لتكوينه

يقوم طبيعته ." fr.32 فإذا تمكن المرء من اكتساب سائر ضروب الفضيلة بالتربية هذه أصبح سعيداً بلا شك . لقد سبق أن رأينا الدور العظيم الذي تلعبه الحكمة في بلوغ السعادة ، وكذلك الأهمية الكبيرة التي للاعتدال وضبط النفس في تشييدها ، وهنا نجد الأساس الثالث وهو التربية : فما هو الدور الذي تلعبه التربية في اكتساب السعادة ؟؟

ينظر ديمقريطس إلي التربية وتعلم الفضيلة على أنه إصلاح وتهذيب للشخصية البشرية ، وإعادة صياغة لها تجعلها تنتقل من التعاسة إلي السعادة ، ومن الانحراف إلي الصلاح . عندما يتعلم الإنسان الفضائل يغدو قادراً على التحكم في نفسه وفي بيئته ، قادراً على أن يفرض على بيئته نظاماً من صنعه هو . ولا يتعارض نظامه هذا مع نظام الطبيعة ، بل يكمله ، لأن الإنسان نفسه جزء من الطبيعة ، وليست قدرته على ابتداع النظام سوى انعكاساً لقدرتها . كما يجلب استعمال هذه القدرة تغيرات على الإنسان نفسه ، فيتم إعادة تشكيل الطبيعة البشرية تشكيلاً كاملاً وفعلياً . ذلك لأن كل معرفة ، وكل اكتشاف يتوصل إليه الإنسان يغير من أسلوب حياته ، وكل تغير في أسلوب الحياة يحدث تغيراً موازياً له في ترتيب الذرات التي تتألف منها نفس الإنسان . كما تؤثر هذه التغيرات على الطريقة التي يرى بها الإنسان الأشياء ويفكر بها ، وبالتالي تؤثر على قدرته على التصرف ، وعلى استعماله لقدراته الفطرية ، ومن ثم يصوغ الإنسان نفسه من خلال استغلال قدرته هذه على فرض النظام على بيئته .[١١٣]

تغيرنا التربية ، حيث تؤهلنا لأن نقصى أنفسنا عن السعي الطائش وراء الملذات الوقتية ، وأن نفاضل ونختار بين اللذات وأعيننا على عملية بلوغ غيرنا الأسمى .[١١٤] إن الشخص الذي ارتقى بعقله من خلال التربية يغدو لديه أساس أكثر رسوخا للتصرف في حياته تصرفاً سديداً من ذلك المتهور الذي يتصرف بدافع النوازع غير العقلانية : كالخوف أو الهلع من خرق القانون . fr.181 والشخص الذي أمن من خلال الاقتناع العقلي سوف يتوقف عن فعل الخطأ حتى ولو كان بامكانه أن يفر به دون أن يعرف أحد يقول " إن العقل أكثر قوة بكثير على الإقناع من الذهب .fr.52 وإذا كان ضمير الإنسان هو الذي يقف حائلاً بينه وبين ارتكابه للخطأ سرا ، فمن الممكن أن يُقوى هذا الضمير ويُعزز دوره بالتعليم المبكر في الصغر .[١١٥]

في التربيه إذن إعادة صياغة للنفس الإنسانية ، وتوجيه لها إلي الصلح ، ومن ثم توجيه لها إلي السعادة الحقيقية . وكان ديمقريطس يرى أن عملية إعادة الصياغة للنفس هذه عملية حرفية وليست مجرد عمل شكلي . اعتقد أن الحياة تعتمد على الصور التي تكون النفس عليها Fr.61 ومن ثم فإن التنوير الذي يحدث في الحياة بشكل مستمر بفعل التربية والتدريب العقلي يعادل عملية تحول في النفس . فليست طبيعة النفس ثابتة بواسطة نموذج بناء ذرات النفس الأصلي ، بل إن هذا البناء نفسه قابل للتغير.[١١٦] وهذا ما أكد عليه فيلسوفنا بقوله " يعيد التعليم صياغة الإنسان ، وبواسطة عملية إعادة البناء هذه تتشكل طبيعته" Fr.32. وربط ديمقريطس بين الطبيعة والتعلم من ناحية وبين العناية من ناحية أخرى ربطاً مباشراً بقوله : " يمكن أن يكون هناك فهم لدى الشباب وفقدان لدى المسنين ، وذلك لأن الزمن لا يعلم العناية . وإنما يتم غرسها في الأوان المناسب وفي الطبيعة ." Fr.33 فلم يكن التعليم عنده مجرد اكتساب للحقائق النظرية ، بل هو اكتساب لفهم عقلاني للحياة " فكثير من الناس موسوعي الثقافة ، ولكن ينقصهم العقل ." ويقول أيضا " ينبغي أن يعتمد المرء على إمعان التفكير أكثر من الاعتماد على كثرة المعلومات ."[١١٧] ويشارك في ذلك هيراقليطس في استنكار الخلط بين كثرة المعلومات وبين الحكمة ، كما أنه يعتنق الرأي القائل أن التربية وليس السن هي التي تجعل الإنسان حكيماً . ويؤيد ديمقريطس هنا التعارض الذي كان شائعا في عصره بين النظر والعمل ويرى أن العمل المبني على معرفة وعلم هو طريق السعادة في الحياة ، أما النظر فدوره مجرد إكمال لدور العقل ، إنه يوجد من أجله .[١١٨] فمع أن كثيرين يفهمون أعظم النظريات فعلا عندما يفعلون نجدهم يفعلون أعظم الأفعال خسة ووحشية .fr53a ويؤكد أيضا على أن أولئك الذين يفعلون بالنظر والكلام كل شيء ، ولا ينجزون شيئا بالعمل والفعل سحرة محتالون ، fr.32 فليس لديهم سوى شبح للحقيقة ، لأن الشبح ليس سوى ظل وشبح للعمل والممارسة .Fr.145 ورغم أن العمل يجلب معه التعب ، فإنه الذي يعطى الحياة طعماً ، وفي غيابه لا تكون المتع سوى متعا فجة قصيرة المدى يعقبها ألم يتزايد بالتدريج .fr. 235 ولن يكون العمل شاقا ومؤلماً إلا عندما يكون فاشلاً، fr. 243 وعلى الإنسان أن يفكر أنه حتى الآلة الجامدة تغدو أيسر عند التعود واستمرارية العمل .fr.241

حقا لم يكن قول ديمقريطس بأن الطبيعة نفسها ثمرة من ثمار التعليم والعادة قولاً جديداً ، فقد قال به السفسطائيون وكذلك الأطباء ، لكن أصالة ديمقريطس تتمثل في أنه جعله مصدرا لعلاقات متبادلة بين الطبيعيات والأخلاق ، وذلك في جعله أساسا من أسس السعادة . في التعليم تحرير للإنسان ليس من سلطان الضرورة الطبيعية ، فهذا مستحيل ، وإنما تحرير له من سطوة المصادفة العمياء . فلا تغدو هي المتحكمة في أفعالنا . بالتعليم يستطيع الإنسان أن يوظف قدرته الخاصة في الارتقاء بنفسه وحياته ، وبالتالي تقوية اكتفاءه الذاتي . من هنا قال ديمقريطس " ما يشكل الحمقى هي ضربات الحظ ، في حين أن ما يشكل أولئك الذين يفهمون هذه الأشياء فهي ثمار الحكمة ." فليس الحظ في رأيه سوى شماعة اخترعها البشر ليعلقوا عليها أخطاءهم وغياب الناصح الأمين عنهم . فنادراً ما يتوافق الحظ مع الحكمة العملية ، وحدة الذكاء هي التي تجعل معظم الأشياء سديدة في الحياة . وأنه إذا كانت المصادفة تبسط أمامنا مائدة زاخرة ، فإن الاعتدال هو الذي يغنينا .[١١٩] إن التعليم والعمل الجاد يقودنا إلي الأشياء الطيبة ، في حين تنشأ الأشياء السيئة تلقائيا وبدون جهد . fr.182 فلا يجب أن نركن إلي الكسل منتظرين ما تجود به علينا المصادفة ، وذلك لأن الكسل يؤدي إلي تولد الملذات التي بسببها يخرج الشر إلي الكون .

للتربية القدرة على تغيير الإنسان وتعديل شخصيته وتحويلها من الشر إلي الصلاح . ولا تحتاج هذه التربية في نظر ديمقريطس إلي مصاريف باهظة ، فمن الممكن أن يقوم بها الآباء في البيوت .[١٢٠]أو يكتسبها المرء من شلة الأصدقاء المختلط بها ، أو من محاكاة الأخيار من البشر ، لذلك أكد ديمقريطس على أن اعتدال الأب أعظم قدوة لأطفاله .fr.61ونظر إلي عبث معلم الشباب على أنه أسوأ شئ من بين كل الأشياء جميعا ، حيث أنه سوف يبث فيهم تلك الملذات التي يتفجر منها الإجرام . وأكد كذلك على ضرورة أن يتحاشى الإنسان مخالطة الأشرار مخالطة طويلة ، لأنها تزيد من درجة ميله إلي الجريمة . بل ينبغي على المرء أن يتحاشى حتى مجرد الحديث عن الأعمال الشريرة . وأكد كذلك على ضرورة أن يتخذ الإنسان قدوة صالحة له يحاول محاكاتها في حياته ، هذا إذا لم يكن هو نفسه صالحا ، فأقبح شئ في العالم محاكاة الأشرار وعدم تمنى حتى تقليد الصالحين [١٢١]

هكذا فإن للتربية مفعول السحر في تشكيل الشخصية الإنسانية السعيدة . فبينما يعتمد حسن تسمين الماشية على الصحة البدنية لها ، يعتمد حسن بناء شخصية الإنسان على حسن بنائه العقلي ، فمن كانت ذاته الباطنية منظمة كانت حياته منظمة أيضا . إذ يمتلك أولئك الذين تُنظم شخصيتهم تنظيماً طيباً حياة سعيدة خيرة . ومن يستخدم النصح في الإقناع سوف يغدو قدوة للفضيلة أشد فاعلية من ذلك الذي يعتمد على القانون والإجبار . فمن الممكن أن يرتكب الرجل الذي يتوقف عن الظلم بقوة القانون الظلم في الخفاء ، أما من يُدفع إلي الواجب بفعل الإقناع فلن يرتكب أي شئ مخل لا في العلن ولا في الخفاء ، ومن ثم فالرجل الذي يسلك السلوك المستقيم عن فهم ومعرفة يغدو شجاعا ومستقيما في الوقت ذاته .fr 181 لذلك طالب ديمقريطس بضرورة أن نغرس في الأطفال الشعور بالواجب والضمير اليقظ ، والإحساس بالخجل أمام أنفسهم منذ الصغر ، فما يفعله الإنسان سيف مسلط على ضميره ، ولا يمكن أن يزول منه إلا بالتوبة . إن الطفل الذي تعلم احترام ذاته سوف يمتلك مفتاح السعادة ، لأن أولئك الذين يسلكون سلوكاً مستقيماً يعيشون حياة طيبة .[١٠٢] لذلك لا ينبغي على الإنسان تملق الحمقى لان في هذا ضرر عظيم عليه ، لأن الشهرة والثروة بدون الحكمة ممتلكات ضارة ، لن طموحات غير الحكيم كلها بلا معنى ، وذلك لأن معلم الأحمق هي المنفعة وليس العقل . لذلك لم يتردد ديمقريطس في التأكيد على أن ثمار التربية مفضلة حتى على كل خيرات الحياة الأخرى كالثروة والجاه والسلطان فقال " إن آمال المتربي تربية قويمة مفضلة على الثروة المكتسبة بواسطة جاهل ."fr.185 واعتبر الثقافة حلية النجاح ، ومأوى أولئك الذين يقعون في الشدة .[١٢٣]

لن يتم اكتساب المهارة ولا الحكمة من باب أولى بدون أن يتعلم الإنسان ، وهو أن يتعلم الإنسان : وهو ليس تعليماً نظرياً بل اجتهاد وعمل . كما لن يتم التوصل إلي الأشياء الجميلة إلا من خلال الاجتهاد في الدرس ، في حين تتكرر الأشياء القبيحة بشكل تلقائي بلا حيلة من الإنسان . ويمكننا أن نرى من ذلك أن ديمقريطس نظر إلي التربية على أنها تغيير متعمد في طبيعة النفس الباطنية ، وأن لمثل هذا التغيير الأخلاقي تأثيراً جسدياً ، طالما أنه يغير إطار البناء الذري للنفس .[١١٤]تتحقق في التربية قدرة النفس على تغيير الطبيعة وهي قدرة ترتقي بطاقة الإنسان الإبداعية والخلقية ، وتحقق اكتفاءه الذاتي ، وبالتالي سعادته . إنه

عمل كان يمارسه الإنسان منذ بدء الخليقة طالما أنه كان أول من تعلم بفعل الاحتياج أن يحول الضرورة – بواسطة الفن إلي حليف لقوته .

ج – سلوكيات الإنسان السعيد

بمقدورنا أن نستخلص من بين ثنايا حديث ديمقريطس السابق عن طبيعة السعادة ، وعن مقوماتها بعض السلوكيات التي ينبغي أن يمارسها الرجل السعيد في حياته : فهو مثلا لا ينبغي أن يكون بخيلاً ، وفي الوقت نفسه لا ينبغي أن يكون مسرفاً ، بل معتدلا في كل شئون حياته ، لا متهوراً ولا جباناً بل رزيناً ، ليس عصبيا ولا بارداً وإنما إنساناً معتدلاً متعلما تعليماً أخلاقيا راقياً . ويمكننا أن نضيف إلي كل ذلك الجوانب التالية :

١-الإنسان السعيد وشئون المدينة

كان ديمقريطس يعيش في عصر شديد الاضطراب والتوتر ، شهد حروبا طويلة بين كل المدن اليونانية المختلفة أثرت على كل مظاهر الحياة والتقدم فيها ، وقد استمرت هذه الحروب ما يقرب من ثلاثين عاما أتت على الخضر واليابس في معظم المدن وهي الحروب التي سُميت "الحرب البولوبنيزية ". فعاش ديمقريطس منقسما فكريا بين رفض هذا العصر بآلامه ومآسيه ورفض المشاركة في أحداثه لأن فيها قضاء على سعادة الإنسان ، وبين ميله الفكري إلي الإصلاح ، وأنه من واجب المفكر الحر عندما لا يرضى عن دموية عصره أن يضحي بقدر من راحته الشخصية لأجل تغيير هذا الواقع وإصلاحه ، لا أن يعتزله في أنانية مرفوضة . لذلك دعا ديمقريطس إلي المشاركة بمقدار في الشئون العامة والسياسية ، حيث يجب على الإنسان السعيد أن يلتزم في هذا كله بالوسط الذهبي .

على الرغم من أن ديمقريطس يؤكد على أن الرجل السعيد موطنه العالم أجمع ، فإنه يؤكد على أن بمقدوره أيضا أن يعيش في أي بلد ، وأن من كانت شخصيته نبيلة يجب أن يتخذ العالم كله موطناً له ، وفي الوقت ذاته يقرر أنه لا شئ يعادل في الأهمية حكومة صالحة .[١٢٥] إن ديمقريطس لا يقف موقفا عدوانيا من المدينة ، بل على العكس أيد المدينة المحكومة حكماً ديمقراطياً ، وقال أنه يفضل أن يحيا فقيراً في ظل الديمقراطية على أن يحيا في رخاء في ظل الطغيان .

إن المدينة الديمقراطية في نظره " مدينة سعيدة تحتوي على كل شئ في ذاتها ، أنها عندما تكون آمنة ، يكون كل شئ آمناً ، أما عندما تُدمر يُدمر كل شئ ."[١٢٦] مما يدل على أن قيام مجتمع مستقر كان أمراً ضرورياً لبلوغ السعادة لدي ديمقريطس ، وهو نفس الرأي الذي سوف يردده بروتاجوراس السفسطائي وأبيقور فيما بعد . إن الإنسان حيوان اجتماعي بطبعه ، حيوان أصبح طبيعة له ثانية أن يعيش مع نوعه حتى يستطيع أن يقضى حاجاته بأعظم قدر ممكن من الهدوء ، واقل قدر ممكن من التوتر ، فضلا على أن الإطار الذي يعيش داخله البشر معا ، ويسعون وراء سعادتهم من خلاله ، لن يتوفر إلا بفضل المدينة . على ذلك فإن سعادة الأفراد تعتمد على سعادة المدينة المؤلفين لها . وإحساساً من ديمقريطس بهذه ا لأهمية للمدينة يصرح بأن أخوف ما يخافه هو تعرض المدينة لنكبة عامة ، ففي هذا دمار لكل أشكال السعادة فيها ، لأن المحنة العامة أصعب في التحمل من الخاصة ، إذ لا يوجد أي قدر من الأمل في العون هنا .[١٢٧]

ولما كان للمدينة كل هذه الأهمية فإن ديمقريطس يتمسك بها ، ويتمسك في الوقت نفسه بمبدأ الاعتدال الذي يمثل العمود الفقري للسعادة عنده ، حيث يقرر ضرورة أن يلتزم الإنسان ــ لأجل أن يحافظ على سعادته ــ بالاعتدال في الأمور العامة والخاصة ، وأن يتحاشى الحدين المتطرفين وهما : رضوخ المرء لمتطلبات المدينة من جانب ، وإهمال الشئون العامة من جانب أخر . فقال " ليس من الصالح للفضلاء من الناس أن يهملوا شئونهم الخاصة لأجل الأشياء الأخرى ، إذ سوف تتضرر شئونهم الخاصة من ذلك ، ولا أن يهملوا الشئون العامة حتى لا يتم التكلم بسوء في حقهم .Fr.240 عليهم بمراعاة التوسط ، ومراعاة حدودهم وقدراتهم الشخصية مراعاة جيدة .[١٢٨] حتى ولو كان الاشتغال بالشئون العامة عملاً تطوعياً إرادياً أي ساراً ، فإن شدة الانغماس فيه يضر بالوجود السعيد ، لأنه أمر يتجاوز قدرات الإنسان .

يساهم الرجل السعيد في إدارة شئون المدينة ، والعمل على أن تدار إدارة جيدة ، ومن ثم فلا يدخل في مشاحنات تخل بالحق والعدل والنظام ، كما أنه لا يكتسب سلطة تتعارض مع الخير العام ، وإذا كان قويا فعليه أن يمد يد العون إلي الضعفاء ، محققا لمصلحتهم حتى يعم التناغم والتعاون المشترك بين المواطنين ، وهنا تتحقق في المدينة نعم ليس بوسع أحد أن يقدرها .[١٢٩] لذلك ينبغي أن "

يعتبر الإنسان شئون المدينة أهم من أي شئ آخر ، وأن يرى أنها تسير سيراً طيباً ، فحسن سلوك المدينة فيما يتعلق بسعادة المواطنين هو من أهم الأشياء . فإذا كان الأمر كذلك فإنه ينبغي أن تُشغل وظائف المدينة بخيار الناس ، وعلى الحكام الحرص على ذلك ، فمن الخير أن يُحكم الأغبياء من أن يحكموا ، كما يجب محاربة بذور الفتنة والصراع المدني من جذورها الأولي ، حتى لا يرتد البشر إلي عش حياة التوحش مثل الحيوانات مرة أخرى . ولما كان الصراع الطبقي بين الفقراء والأغنياء هو الخطر الداهم الذي كان يهدد تهديداً متزايداً أمان المدينة اليونانية في القرن الخامس ق.م فقد حاربه ديمقريطس بشدة ناظراً إليه على أنه ضار بكلا من الطرفين المنتصر والمهزوم فيه ، لأن النتيجة واحدة في الحالتين وهي الدمار . فعلى الفقير إلا يحقد على الأغنياء الذين يوصفون بأنهم سعداء بواسطة الآخرين ، لأن حقده هذا يدفعه إلي أعمال متهورة يحرمها القانون ، ومستحيل على مثل هذا الرجل أن يكون سعيدا . ولا يمكن تحقيق الأعمال المجيدة إلا في ظل السلام ، أما من غير ذلك فهذا مستحيل . ما لم يتم الترحم والعطف من الأغنياء على الفقراء فلن يسود السلام ، بل سوف تقوم الكراهية والأنانية التي قد تجعل المواطنين يسلمون أنفسهم لأيدي طاغية ــ على أمل أن يحققوا بالقهر ما عجزوا عن تحقيقه طواعية ، وهو شر الأمور ، وإن كان سقوط المدينة هو الشر الأعظم من ذلك ، لأن بديل المدينة سوف يكون الهمجية الأولى .[١٣٠]

أما قوانين المدينة فإن ديمقريطس ينظر إليها نظرة خاصة ، إنه يعتبرها من وضع البشر ، وليس من الطبيعة في شئ ، إذ لا يوجد في الطبيعة سوى الذرات والخلاء .[١٣١] والهدف الذي من أجله تم وضع القوانين هو نفع الحياة البشرية fr248. وهو نفس الهدف الذي تسعى وراءه الطبيعة نفسها ، فلا تعارض إذن بين مطالب الطبيعة وبين مطالب القوانين الوضعية . غير أن القوانين لن تتمكن ــ في رأيه ــ من تحقيق هذا الهدف إلا لو رغب البشر هم أنفسهم في تلقي هذه الفائدة ، لأن القانون يسطع في نفوس أولئك الذين يطيعونه انطلاقا من فضيلتهم الخاصة .[١٣٢]ولن يحقق القانون هذا النفع للحياة البشرية ما لم يكن لدى الإنسان الاستعداد والاقتناع الباطني للانتفاع به . fr.248 وديمقريطس في ذلك يقيم سيادة القانون و ما يصاحبه من تحقيق النفع للحياة البشرية على ضمير الإنسان الباطني وحده ، تماما مثلما سوف يفعل سقراط ، لأن الإحجام عن الجرائم لا يكون عنده

ـ كما سبق وأن قلنا ـ بالخوف من العقاب ، وإنما من خلال الشعور بالواجب ، ومن ثم فالإنسان الذي يبغي السعادة في حياته عليه أن يطيع القوانين انطلاقا من ضميره الباطني ، ذلك الذي هو عبارة عن نفور داخلي من الخطأ ، وحب للواجب والعدالة .[١٣٣] عليه أن يطيعها عن اقتناع ورضي نفسي يقول " من اللائق أن تكون مطيعا للقانون ، وللحاكم وللحكيم ." fr.47 ويقول أيضا " الرجل السعيد ميال إلي ما هو قانوني وعادل ."fr174 وفي طاعته للقانون إكمال لسعادته ؛ سوف يغدو سعيدا يقظا كان أو نائما ، سوف يغدو قويا خاليا من التوتر . ذلك لأن القانون نفسه يهدف في الأساس نفع وإفادة البشر جميعا . لقد تم سن القوانين للحفاظ على الحقوق وليس لتقييد الحريات ، ولن تمنع القوانين أحدا من ممارسة حريته ، والاستمتاع بها ما لم يكن في ذلك إضرار بحريات الآخرين . ومن ثم يحرر القانون الناس من كراهية بعضهم البعض ، ويتيح بالتالي لهم فرصة إتباع دوافع الطبيعة التي تقودهم إلي منفعتهم الخاصة .

إن العضوية في المدينة تقتضي من الإنسان أن يعيش ليس كما يرى أنه مناسب له ، وإنما وفقا لما تمليه عليه القوانين ، فسيادة القانون أمر لا يقبل المساومة على الإطلاق ، والخير العائد من ذلك هو الثقة في العقل ، والسكينة في النفس ، في حين يترتب علي مخالفته : الخوف وهو بداية الكارثة ، يقول " الرجل المستقيم هو الذي يعكف على فعل ما هو عادل ومشروع ، فيعيش في سرور ليلاً ونهاراً ، قوياً خالياً من الهم ، في حين أن ما لا تهمه العدالة في شئ ، فسوف تغدو كل هذه الأشياء مثيرة للاستياء عند تذكر أي واحد منها ، ويحيا خائفا ساخطا على نفسه ، فبينما لا يخاف العادل من أي شئ ، يخاف الظالم من كل شئ .[١٣٤] لذلك اعتبر ديمقريطس أن من يقتل شخصا خارجا على القانون ـ سواء كان قرصانا أو لصا ـ فيجب أن يُحكم له بالبراءة .fr.260 إن الإنسان عندما يجد أن مصلحته الخاصة في طاعة القوانين ، طالما أنه بفعل هذا يحافظ على تماسك المدينة ، وبالتالي يحافظ على الشروط التي لن تتحقق السعادة إلا في ظلها ، فإنه بالتالي سوف يطيعها طواعية ، ومثل هؤلاء البشر هم الفاضلين والسعداء حقا . وديمقريطس هنا استطاع أن يسد الفجوة بين السعادة الفردية وبين سعادة المدينة ـ في رأي روبنسون ـ فالمرء الذي لا يجد أن سعادته تتعارض مع متطلبات العدالة ، والتي تطلب منه أن يحيا وفقا للقوانين على خلاف رغباته وميوله

يكتشف أن سعادته ما كان يمكن أن تتحقق إلا داخل المدينة فحسب ، وذلك لأن المدينة تكبح الآخرين أيضا من إلحاق الضرر به في سعيهم وراء سعادتهم الخاصة . [١٣٥]

٣- الإنسان السعيد وشئون الأسرة

سيطرت على ديمقريطس في هذه النقطة النزعة المحافظة ، حيث نجده فيها شديد الإخلاص إلي قيم مجتمعه اليوناني التقليدي القائمة على ثقافة الرجل والمجحفة للمرأة ، ويخلو توجه ديمقريطس هنا من أية لمسة ثورية .

إننا نجد ديمقريطس يقف هنا موقف التأييد لنظام الرق مثله في ذلك مثل كل العامة من معاصريه ، كذلك مثله مثل سقراط وأفلاطون وأرسطو ، حيث يؤيد أن يتخذ الإنسان العبيد ويستخدمهم كما يستخدم أجزاء جسده ، كل عضو فيه لغرضه الخاص . كما اعتنق ديمقريطس نفس الموقف اليوناني التقليدي المحافظ نحو المرأة ؛ حيث نظر إليها نظرة دونية عدوانية ، فاعتبرها أدني من الرجل بكثير ، إنها أسرع منه في تدبير المكايد ، ومن ثم فلا يجب أن تمارس الحديث الطويل ، لأن ذلك أمر خطير .fr217 وأخطر شئ كان ديمقريطس يخشى وقوعه هو خضوع الرجل للمرأة ولسيطرتها ، لأن في هذا أشنع إهانة له . وقد دفعت هذه النظرة الظالمة إلي المرأة ديمقريطس إلي أن يقف موقف العداء من الزواج وتكوين الأسرة وإنجاب الأبناء ، وحبذ حياة العزوبية . وهو هنا يخرج على التقاليد والأعراف الراسخة في المجتمع اليوناني ، ويعزف على وتر نشاز . غير أن تأكيده على أن في الالتزام بالعزوبية الشئ الصواب في سعادة الإنسان قد كان شيئا شديد الإبهار للجمهور القديم – حتى وإن كان يبدو غريباً وشاذاً .

إن ما ضايق ديمقريطس أساسا في الزواج ليس الجانب الأخلاقي لهذه العلاقة ، وإنما الجانب الجسدي ، إذ يسيطر عليه – في رأي زيللر – الفزع من المتعة الجنسية ، لأن الضمير – والذي يعول عليه ديمقريطس كثيرا في نشر السعادة والعدالة بين الناس – يُقهر إثناءها بواسطة الشهوة ، ويسلم الإنسان فيها قيادته لفتنة الحواس الخادعة .[١٣٦] وكانت الأسباب التي دفعت ديمقريطس إلي هذا الموقف المنادي بالانصراف عن الزواج والإنجاب ، أن في هذا الإنجاب مخاطرة غير مأمونة العواقب ، فنوعية وطبيعة الطفل الذي ننجبه تقع في عالم

الغيب ، وأفضل لنا أن نبتعد عن المخاطرة ، ونختار طفلا موجودا من قبل ، وعند اختياره سوف نراعي ما لن نستطيع مراعاته عند إنجاب أطفالنا الشخصين ، حيث سوف نراعي فيه أن يكون متمتعا بحسن الخلق والخليقة ، حسن التصرف ، ونتخذه صديقا لنا . كما أن في إنجاب الأطفال من صلبنا أخطار عظيمة أخرى على رأسها ما يقتضيه إنجاب وتربية الأطفال من آلام ومشاق جسدية وصحية للأبوين ، والتكلفة المالية الكبيرة لهذه التنشئة .fr276 ولما كان لا مكان للتهور على الإطلاق في الأخلاق التي ينادي بها ديمقريطس ، فإن الحكيم يحسب التكلفة هنا بدقة شديدة فيعزف عن الزواج والإنجاب .[١٣٧] فإذا كان الناس يرون ضرورة أن يكون لهم أبناء لأن من الطبيعي أن يفعلوا ذلك ، وأنه عُرف مترسخ منذ القدم ، كما أنه واضح في كل الحيوانات ، فإن ديمقريطس لا يرى ضرورة لأن يكون للمرء أطفال من صلبه ، ففي إنجاب الأطفال أخطار عظيمة تفوق المنافع ، ومن الفضل أن يستعيض الإنسان عنهم باتخاذ أصدقاء له . في إنجاب الأطفال وتربيتهم مخاطر غير مأمونة ، لأن هذه التربية إذا نجحت فإن باطنها يكون قتالاً وقلقاً دائما ، وإذا فشلت فإنها ستؤدي إلي كارثة أخطر من أي مرض . fr. 235 والحسرة هنا سوف تفوق كل الحسرات . وحتى لو كان المرء ميسور الحال ، ولا يخشى الفقر من وراء إنجاب الأطفال ، فإن تركته التي سوف يتركها لهم غير مأمونة النتائج ، إن ادخار المرء لأولاده في رأي ديمقريطس قد لا يكون سوى صورة من صور التعاسة .fr.222 ومن ثم ينتهي ديمقريطس إلي النتيجة التالية " لذلك من الأفضل ألا يكون لديك أطفال "[١٣٨]

الرجل الذي يستعيض باصطفاء الأصدقاء عن إنجاب الأطفال يحقق مكاسب عديدة في رأي ديمقريطس ، حيث يغدو له أطفال ــ صحيح أنهم ليسوا من صلبه ــ دون أن يستنزف سوى القليل من ممتلكاته ، ومن ثم يقيم جداراً يدافع به عن ملكيته وشخصيته . كما أن الطفل في هذه الحالة سوف يكون من النوعية التي يتمناها الإنسان ، حيث يستطيع المرء أن يختار من بين الأصدقاء الموهوبين ما يريد ، والفرق عظيم هنا ، فالإنسان بهذه الطريقة يمكنه أن يختار ويفاضل بعقله من بين الكثيرين ، في حين أن المرء عندما ينجب أطفالا يجب عليه أن يرضى بما سوف يأتيه مهما كان وضعه وقدراته .fr277 وقد يكون المحصول نادرا ، وحتى إذا وجد قد يكون ضعيفاً وهزيلاً .[١٣٩]

رفض ديمقريطس الزواج وإنجاب الأطفال إذن اعتقادا منه بأن الإنسان الذي ينغمس في مثل هذه الأمور يدمر سعادته الخاصة ، ويسبب تشويشا لنفسه لا قبل له به ، فهذه الأفعال عديمة الجدوى في توفير السعادة للإنسان ، وعليه أن يبتعد عنها حفاظا على سعادته الشخصية . حقا نحن لا نؤيد ديمقريطس في هذه النزعات المعادية للمجتمع وللبشرية ، بل نعتبرها آراءً أحادية النظر معابة لما فيها من قضاء على الجنس البشري أجمع على المدى البعيد ، وتدمير للذرية البشرية ، ولكن ليس لنا الحق ــ على الأقل في هذا العرض ــ أن ندينها ونوجه لها اعتراضات نحن لا نثيرها ــ كما يقول زيللر ــ ضد أفلاطون رغم قوله بشيوعية الزوجات ، ولا نثيرها ضد رهبان الزهد المسيحي .[١٤٠]

٣- الإنسان السعيد والصداقة

إذا كان ديمقريطس في تصوره لسلوكيات الرجل السعيد في جماعة الأسرة والمجتمع الصغير قد قلص علاقات هذا الإنسان بهذه الأمور ، فجعله يعزف عن الأسرة وإنجاب الأبناء حتى لا يعكر بمشاكلهم صفو سعادته وراحته النفسية ، فإن ديمقريطس ما فعل ذلك إلا لأنه وضع ثقة عظيمة في جماعة أخرى بديلة سوف يعيش وسطها الإنسان السعيد كبديل لجماعة الأسرة ، ويشبع من خلالها ميله الفطري للاجتماع بالآخرين ، واتخاذ الأبناء ، ويحافظ في الوقت نفسه على سعادته فلا تتعكر ، وهذه الجماعة البديلة هي جماعة الأصدقاء .

ينبغي على الإنسان السعيد أن يتخذ لنفسه أصدقاءً ، يعدوه دافع واحد من وراء كل ذلك هو دافع العطاء والمنح وليس المنفعة والأخذ . أما الإنسان الذي يعيش منعزلا متقوقعا على نفسه لا يحب أحدا ، ولا يحبه أحد ، إنسان يعيش حياة كئيبة لا تستحق أن تُعاش ، إذ لا تستحق الحياة أن تُعاش عند إنسان ليس لديه على الأقل صديق واحد مخلص . وفي رأي ديمقريطس أن التشابه في وجهات النظر هو الذي يخلق الصداقة ، والرجل الذي لا يمكث أصدقاءه المقربون عنده لفترة طويلة إنسان سيء الطبع ، إنه ينبغي على الإنسان لكي يكون موضع حب من الآخرين أن يحب هو بدوره الآخرين ، ولن يكون الحب ملائما إلا عندما يكون مبرئا من أي منفعة مادية ، ومن أي شهوة دنيئة .[١٤١] لقد حذر ديمقريطس من الانقلاب النفعي للقيم الإنسانية إلي علاقات مادية نفعية ، وأوصى بضرورة أن

يحاسب الإنسان قبل أن يحاسب غيره من البشر على أخطائه ، أن يحاسب نفسه أولا على أخطاءه هو نفسه . fr.60 كما يوصي بضرورة أن يحذر الإنسان من أن يتخذ أصدقاءً له من بين أولئك الناس كثيري الشكوى والضجر .fr109 كما عليه أن يبتعد عن مصاحبة الأشرار ، لأن مصاحبة إنسان سافل مصاحبة طويلة تزيد من الميل إلي الرذيلة . fr184 وإذا ما تعرض المرء للخيانة من أحد أصدقاءه فلا ينبغي أن يتسرع في الثأر والانتقام ، بل عليه أن يتحلى بالحلم والعفو . فمن المهم في المصيبة أن تفكر كما ينبغي .[١٤٢] كما يوصي بضرورة تحاشي النميمة بين الأصدقاء فهي التي تدمر الصداقة . على الإنسان أن يحرص – للحفاظ على سعادته – على أن يصطفي أصدقاءً له من الحكماء ممن يتفقون معه في الفكر والشخصية ، فكثير ممن يبدون لنا كأصدقاء ليسوا في الحقيقة كذلك ، والعكس صحيح أيضا . كما أنه ليس كل أقرباء المرء أصدقاء له ، إن إقامة صداقة واحدة مع رجل واحد حكيم أفضل من إقامتها مع البشر جميعا عندما لا يكونون حكماء .[١٤٣] فإذا حدث وهوى صديق لنا في خندق الفقر والعوز بعد غنى ، فلا يجب أن ننتكر له ، بل يجب أن نقف إلي جواره نشد من أزره .fr101 وهنا يطلق ديمقريطس حكمة بالغة لا تسري على عصره فقط بل على كل العصور تقول " من السهل الحصول على صديق وقت الثراء ، أما في وقت العوز فلا يوجد شيء أصعب من ذلك .[١٤٤]

هكذا يعلي ديمقريطس من شأن الصداقة إعلاءً عظيماً تلك التي كانت متغلغلة بشدة في الأخلاق اليونانية التقليدية ، فكان بذلك معبراً عن هذه الأخلاق خير تعبير . وهنا نسأل ما هي الثمار التي يمكن أن يجنيها الإنسان السعيد من وراء جماعة الأصدقاء هذه ؟؟

هنا نجد ديمقريطس يبشر بما سوف ينادي به أفلاطون في "المأدبة" وما سوف ينادي به أبيقور فيما بعد بأن الثمرة التي يجنيها الرجل السعيد من وراء أصدقاءه ليس المنفعة المادية ، ولا اللذة الخسيسة ، ولا المال الزائل ، وإنما ثمرة أسمى من كل ذلك ، إنها الحب الروحي الطاهر ، الحب الذي يحقق غاية عزيزة على الرجل السعيد وهي إنجاب ذرية روحية له في نفوس أصدقاءه ، ذلك من خلال غرس القيم والمثل النبيلة في نفوس هؤلاء الأصدقاء ، فيصبحوا بشراً ناجحين في الحياة ، وقدوة لغيرهم من البشر ، فيسعد لذلك أكثر من سعادته

بأطفاله الذين انحدروا فعلا من صلبه . ومن هنا كانت دعوة ديمقريطس إلي أن يعزف الرجل السعيد عن إنجاب ذرية من صلبه ، وأن يسعى إلي إنجابهم إنجاباً روحياً في مجموعة أصدقاء له يتم اختيارهم بعناية شديدة ، ذوي مهارات ومواهب منتقاة ، فيحقق في نفوسهم الأطفال الذين كان يتمنى أن ينحدروا من صلبه .[١٤٥]

ننتهي بهذا من استعراض التصور الذي طرحه ديمقريطس للسعادة البشرية في هذه الحياة . وتعليقنا علي هذا التصور هو أن كل ما فعله ديمقريطس فيه هو أنه بشر بالسعادة كمرشد خير لنا في الحياة ، وخصص كثير من حكمه الأخلاقية لتحديد الطرق التي تمكن الإنسان من أن يغدو إنساناً حسناً سعيداً . ويمكننا النظر إلي تصوره هذا على أنه محاولة قام بها رجل متفاءل ذو تجارب عريضة لكي يعطي النصح لتلاميذه حتى يعيشوا حياة سعيدة متفائلة . غير أنه يؤخذ علي هذا التصور خلوه من اللمحة المعيارية المميزة لفلسفة الأخلاق ، لقد جاء تصوره واقعيا ، يحدد السعادة والابتهاج كغاية للحياة ، ويسعى بها إلي تقليص التوتر العصبي إلي حده الأدنى في عصره ، لكنه لم ينظر إلي الفلسفة كوسيلة تغيير لمجتمع قائم ، بل كان هدفه فحسب هو أن يفسره .[١٤٦]ويلوح لنا أن ديمقريطس كان هنا أول مفكر يعلن بوضوح أن الابتهاج أو السعادة هو الخير الأسمى ، وأول من وحد بين هذا الخير وبين هدوء العقل واعتدال المزاج ، واشترك مع هيراقليطس في إقامة السعادة على طاعة قانون الطبيعة والالتزام به .[١٤٧] لذلك نعتقد من جانبنا أن "فلاستوس" كان على صواب في وصفه لتصور ديمقريطس الأخلاقي على أنه أول أخلاق طبيعية خالصة في الفكر اليوناني .[١٤٨] وليس هذا بغريب فقد كان ديمقريطس كما قلنا حلقة الوصل بين الفكر الطبيعي اليوناني وبين الفكر الأخلاقي السقراطي .

تركت أفكار ديمقريطس في السعادة ظلالاً كثيفة من التأثير على الذين جاءوا من بعده ، فقد أثرت في موقف سقراط من السعادة كما رأينا ، وأثرت على أفلاطون في تأكيده على اعتماد السعادة على تنظيمك العاقل لحياتك ، فالملاك الحارس الوحيد الذي تحتاجه قائم في عقلك أنت وحدك ، وليس في الأشياء الخارجية . كذلك سبقت أرسطو في إقامة السعادة على التمسك بمبدأ الوسط الذهبي . فإذا وضعنا في الحسبان أن ديمقريطس كان معاصراً لسقراط ، وشيخا

طاعناً في السن بالطبع عن أفلاطون أمكننا أن نفترض مع "جثرى" أن بعضا من الأفكار الأخلاقية التي عادة ما يُنظر إليها على أنها من السمات المميزة لسقراط من المحتمل أنها كانت من إبداع ديمقريطس ، إلا أن غياب الشهادة التاريخية على ذلك تجعلنا نتوقف عن القطع بذلك ونكتفي بالترجيح فقط .[١٤٩]

أما دين أبيقور لديمقريطس فدين عظيم في الطبيعيات والأخلاق على السواء . حيث أثر ديمقريطس بمزجه بين السعادة وبين التقشف والحكمة من جهة أخرى في الكلبيين الأوائل ، وانتقل تأثيره هذا من خلالهم إلي أبيقور والذي كان بدوره تلميذا مباشرا لهم . كانوا الرافد الأول الذي انتقل فكر ديمقريطس من خلاله إلي أبيقور في حين كان الرافد الثاني هو تلاميذ ديمقريطس نفسه مثل : أنكسارخوس الأبديريAnaxarchus فيلسوف بلاط الإسكندر والذي أمن بأن السعادة الهدف الأسمى من الحياة ، وإن كان قد غلفها بغلاف سميك من الشك ، وكذلك هيكاتايوس Hecataeusالذي اعتبر السعادة حرية الفرد الباطنية وسروره ، في حين رآها تلميذ ثالث وهو نيوزيفانوس Nausphanesفي الطمأنينة وانعدام الخوف .[١٥٠]الأمر الذي يدلنا دلالة واضحة على أن شهرة ديمقريطس كمعلم أخلاقي يبشر بالسعادة قد ظلت قائمة فترة طويلة حتى عصر أبيقور ، هذا رغم الصوت المدوي الذي أصبح للاتجاه الأخلاقي الجديد المعتنق بواسطة سقراط وأفلاطون .[١٥١]

وما ينفي قوله هنا أن نزعة أبيقور في اللذة ذات المنحى السعادتي مأخوذة في أجزاء عديدة منها من تصور ديمقريطس السابق . لقد دافع أبيقور بحرارة عن نسق ديمقريطس ، وأقام عليه الفلسفة الأبيقورية العظيمة . لقد استمد منه حالة النفس المثالية التي قال بها " الأتراكسيا" أو الصفاء النفسي .[١٥٢] كما أخذ منه الدعوة إلي ضرورة إزالة المخاوف من عقول البشر ، والالتزام بالاعتدال في طلب اللذة ، وغير ذلك ، مما يوحي إلينا بالقول بأن ديمقريطس قد تنبأ وسبق بالحل الهللينستي لمشكلة السعادة .

لكن مما يُؤخذ على تصور السعادة لدي ديمقريطس أنه لا يوضح لنا الدور الذي تلعبه الفضيلة في الحياة السعيدة مع أنه دور في غاية الأهمية . إن عمله يكشف عن عيب عدم وجود السيكولوجيا الأخلاقية التي سوف تتماشى مع دعوى

كهذه . كما تأخذ عليه "جوليا أناس" أيضا أنه لا يؤكد تأكيدا صريحا على السمات الصورية لغايتنا العليا { الكمال ، الكفاية الذاتية } تلك السمات التي أضحت في غاية الأهمية منذ عصر أفلاطون . كما أنه لا يؤكد على الجانب الوجداني في مسألة أننا نطلب السعادة في كل شئ نفعله .[١٥٣] أما "بارنيس" فيأخذ على تصور ديمقريطس أنه لا يملك أي شئ ليفعله على الإطلاق بالأخلاق ، إنه لا يحدثنا بما ينبغي علينا أن نفعله ، ولا كيف نحقق حياة أخلاقية . إن ما يقدمه هو روشتة للسعادة وليس توجيهاً بالخير ، إنه ينصب غاية أنانية للفرد ، ويهديه إلي الكيفية التي يحصل بها عليها ، ولا ينصب هدفاً أخلاقياً ، أو يقدم نصيحة تقود إلي بلوغه .[١٥٤] كما يأخذ عليه أيضا أن روشتته للسعادة روشتة منفرة إلي حد عظيم ، فالهدوء والسكينة فضائل مملة . كما أن الاعتدال في الأشياء جميعا يقود إلي حياة مملة وكريهة . فعدم الانفعال و الإثارة روشتة للضجر في حقيقة الأمر . فضلا على أنه يأخذ على ديمقريطس عيب التناقض الذاتي : فبينما يؤكد في الطبيعيات على سيادة الضرورة على أحداث الوجود جميعا ، مما يعني إنكار الحرية الإنسانية ، نراه في الأخلاق يوجه نصائحه وحكمه باتباع الاعتدال وتحاشي الإفراط ، وكأن لدى الإنسان الإرادة الحرة لاختيار الوسط أم لا ، وأنه سوف يستمع إلي نصيحته هذه ويعمل بها ، ويبدو من الشذرات أن ديمقريطس كان يوجه نصائحه الأخلاقية بسذاجة مفرطة غير واع بالمشكلة التي كان هو نفسه أول مفجر لها بتأكيده على هيمنة الضرورة في العالم الطبيعي ، وفي الوقت نفسه تأكيده على حرية الإرادة الإنسانية في الأخلاق .[١٥٥]

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر المترجمة إلي الإنجليزية

1- **Democritus** : The Fragments, in : K. Freeman : Ancilla to The Pre-Socratic Philosophers, Basil Blackwell , Oxford , 1948.

ثانياً : المراجع الإنجليزية

Barnes (J.): (1) The Pre-Socratic Philosophers, Routledge & Kegan Paul , London , 1982.

Bogomolov (A. S.) (2) : History of Ancient Philosophy , Progress Publishers, Moscow , 1985.

Burnet (J) : (3) Greek Philosophy , Thales to Plato , Macmillan & Co Ltd, London , 1961.

Freeman (K) (4) : The Pre-Socratic Philosophers , 2nd ed , Oxford , Basil Blackwell , 1959 .

Gomperz (Th.) (5) : Greek Thinkers (A History of Ancient Philosophy) vol. 1 , trans by : L. Magnus, John Murray , 1920 .

Guthrie (W. C. K.) (6) : A History of Greek Philosophy , vol.11, Cambridge , at the university press, 1962.

Huby (P. M.) (7) : Greek Ethics , Macmillan , London , 1967 .

Jaeger (w) (8) : The Theology of early Greek Philosophers , At the Clarendon press, Oxford , 1948 .

Kirk (G. S.) & J. E. Raven (9) : The Pre-Socratic Philosophers, Cambridge , At The University Press, 1963.

Laertius (D) (10) : Lives of eminent Philosophers , trans by : R.

D. Hicks , Harvard University press , 1979.

Robin (L.): (11) The Greek Thought and the origins of the Scientific spirit, trans by : M. R. Dobie , Kegan Paul , London 1928 .

Robinson (J. M.) (12) : An introduction to early Greek Philosophy , Houghton , Mifflin Company , Boston , 1968.

Taylor (C. C. W) (13): "The Atomists", The Cambridge Companion to early Greek Philosophy , ed by : A. A. Long, Cambridge university press , Cambridge, 1999, pp.181-203 .

Vlastos (G) (14) : "Ethics and Physics in Democritus ", Pre-Socratic Philosophy, Ed By : R. E. Allen & D. J. Furley , vol.11, Routledge & Kegan Paul , London , 1975, pp. 381-408.

Zeller (E) (15) : A History of Greek Philosophy , trans by : S. F. Allyer, vol.11, Longmans Green and co. , London , 1881.

٣- المراجع العربية

د/ أحمد فؤاد الأهواني : (١) فجر الفلسفة اليونانية قبل سقراط ، دار إحياء الكتب العربية ، ط١ ، القاهرة ، ١٩٥٤ .

أفلاطون : (٢) الطيماوس ، ترجمة : الأب فؤاد جرجي بربارة ، تحقيق : ألبير ريفو ، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد ، دمشق ، ١٩٦٨.

هنري سدجويك : (٣) المجمل في تاريخ فلسفة الأخلاق ، ترجمة د/ توفيق الطويل ، عبد الحميد حمدي ، دار نشر الثقافة ، الإسكندرية ، ١٩٤٩ .

ول ديورانت :(٤) قصة الحضارة ، م١ ج٢ و ترجمة / محمد بدران ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٨ .

مراجع من شبكة المعلومات :

1 - Annas (J) : Democritus and Eudaimonism,

http://www.phil.canterbury.ac.nz/tom_bestor/e-texts/Annas%2C%20Julia%20-%20Democritus%20and%20Eudaimonism.htm

2- Democritus http://www.humanistictexts.org/democritus.htm

3 – Lee (F. J. T) : History of Wisdom , B1, Ancient Greek Philosophy ,

http://www.franz-lee.org/files/praxistheory00010.htm

4- O'Keefe (T) : Review of " J. Warren's Epicurus and Democritean Ethics " Notre Dame Philosophical Review, 2003,05, 03,

http://ndpr.icaap.org/content/archives/2003/5/okeefe-warren.html

5- Purinton (J. S.) Review of " J. Warren's Epicurus and Democritean Ethics ", B. Nawr classical Review 2002.10.01,

http://ccat.sas.upenn.edu/bmcr/2002/2002-10-01.html

الهوامش

1 – W. C. K. Guthrie : A History of Greek Philosophy , Vol. 11 , Cambridge , At The University press , 1962 , p. 492 . and vide : - Leon Robin : The Greek Thought and the origins of the Scientific spirit , trans by : M. R. Dobie , Kegan Paul , London , 1928 , p. 120

2 – Diogenes Laertius : Lives of eminent Philosophers , trans by : R. D. Hicks , Harvard university press , 1979 , Vol. 11, 9, 41 . p.451

3 – J. Barnes : The Pre-Socratic Philosophers , vol. 11 , Routledge & Kegan Paul , London , 1979 , p. 228 .

4 – W. C. K. Guthrie : op cit , vol. 11 , p. 489 .

* – راجع في ذلك :

- K. S. Kirk & J. E. Raven : The Pre-Socratic Philosophers , Cambridge , At The University Press, 1963 , p. 425 .
- J. Barnes : Op Cit , p. 229 .
6 – E. Zeller : A History of Greek Philosophy, trans by : S. F. Alliyer , vol. 11 , Longmans Green and co. , London , 1881, p. 278 .
7 – K. Freeman : The Pre-Socratic Philosophers , Oxford Basil Blackwell ,London, 1959 , p. 296 .
8 – Julia Annas : Democritus and Eudaimonism , http://www.phil. canterbury.ac.nz/tom_bestor/e-texts/Annas%2C%20Julia%20-%20Democritus%20and%20Eudaimonism.htm
9 – C. C. W. Taylor : The Atomists , in : The Cambridge companion to Early Greek Philosophy , Ed By : A. A. Long , Cambridge University Press , 1999, p. 197.
10 – Julia Annas : Op Cit , http://www.phil. canterbury.ac.nz/ tom bestor/ e-texts/Annas%2C%20Julia%20-%20Democritus%20and% 20Eudaimonism.htm
11 – Democritus : fr. 35 , in : K. Freeman : Ancilla to early Greek Philosophers, Basil Blackwell , Oxford , 1948 , p.135.
12 – Th. Gomperz : Greek Thinkers , Vol. 1 , trans by : L. Magnus , John Murray , 1920 , p. 367 .
13 – Diogenes Laertius : Op Cit ,vol.11, 9 , 41, p.451.
١٤ – د / أحمد فؤاد الأهواني : فجر الفلسفة اليونانية قبل سقراط ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٩٥٤ ، ص ٢٢٦ .
15 – J. M. Robinson : An introduction to early Greek Philosophy, Houghton Mifflin company , Boston , 1968 , p.p. 219-220 .
16 – Diogenes Laertius : Op Cit , Vol. 11 , 9 , 45 , p. 455 .
17 – Julia Annas : Op Cit , http://www.phil. canterbury.ac.nz/ tom bestor/ e-texts/Annas%2C%20Julia%20-%20Democritus%20and% 20Eudaimonism.htm
18 – J. S. Purinton : Review of J. Warren's " Epicurus and http://omega.cohums.ohio- Democritean Etnics,' state.edu/mailing_lists/BMCR-L/2002/0318.phpBMCR 2002.10.01
19 – Ibid .
20 – Democritus : Fr 171 ,in : K. Freeman : op cit, p.138.
21 – Diogenes Laertius : Op Cit , Vol. 11, 9 , 45 , p.455 .

22 – J. Burnet : Greek Philosophy , Macmillan & Co. LTD, London , 1961, p. 200.
23 – Democritus http://www.humanistictexts.org/democritus.htm
24 – J. Burnet : Op Cit , p. 200 .
25 – Julia Annas : , http://www.phil. canterbury.ac.nz/tom_bestor/e-texts/Annas%2C%20Julia%20-%20Democritus%20and%20Eudaimonism.htm
26 – http://www.humanistictexts.org/democritus.htm Democritus ,
27 – Th. Gomperz : Op Cit , vol. 1 , p. 368 .
28 – Diogenes Laertius : Op Cit , Vol. 11 , 9, 45 , p. 455.
29 - Democritus , http://www.humanistictexts.org/democritus.htm
٣٠ – د/ أحمد فؤاد الأهواني : المرجع السابق ، ص ٢٢٧ .
31 – W. C. K. Guthrie : Op Cit ,Vol. 11, p. 493 .
٣٢ – أفلاطون : الطيماوس ، ٩٠ترجمة : الأب فؤاد جرجي بربارة ، تحقيق : ألبير ريفو ، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد ، دمشق ، ١٩٦٨ ، أ٩٠ ، ص٣٨٤ .
33 – G. Vlastos : Ethics and Physics in Democritus, in : Presocratic Philosophy , Ed By : R. E. Allen &D. J. Furley , Vol. 11, Routledge , London, 1975 , p.383.
34 – Ibid , P. 382 .
35 – W. Jaeger : The Theology of early Greek Philosophy , At Clarendon press, London , 1948 , p. 182 .
٣٦ – ومن المحتمل أن إسقاط ديمقريطس للقوي الإلهية من أن تلعب دوراً في العالم أو في السعادة البشرية هو الذي أقلق أفلاطون فيما بعد من بشده لدرجة أنه عمل على إحراق كل مؤلفات ديمقريطس ، وما منعه من ذلك هو كثرة انتشارها وتداولها راجع : - Diogenes Laertius , op cit , vol. 11, 9 , 45, p.455.
37 – J. Robinson : Op Cit , p. 231 .
38 – W. Jaeger : Op Cit , p. 181, N41 .
39 – G. Vlastos : Op Cit , p. 393 .
40 – Julia Annas : , http://www.phil. canterbury.ac.nz/tom_bestor/e-texts/Annas%2C%20Julia%20-%20Democritus%20and%20Eudaimonism.htm
41 – Democritus : Frs. 172-173 , p.139.
42 – P. M. Huby : Greek Ethics , Macmillan , London , 1967 , p. 14

43 – W. C. K. Guthrie : Op Cit , Vol. 11 , p. 497 .

٤٤– من المنكرين علي سبيل المثال : - E. Zeller : Op Cit , vol. 11 , p. 286 .

- C. C. W. Taylor : Op cit ,p. 200.

- J. Barnes : Op Cit , vol.11 , p. 232 .

45 – K. S. Kirk & J. E. Raven : Op Cit , p. 425. and vide :

- P. M. Huby : Op Cit , p. 14 .

46 – G. Vlastos : Op Cit , pp. 383 – 384 .

47 – Ibid , p. 384 .

48 – E. Zeller : Op Cit , Vol. 11 , p. 286 .

49 – Julia Annas :op cit ,
canterbury.ac.nz/tom_bestor/e-texts/Annahttp://www.phil.
%2C%20Julia%20-
%20Democritus%20and%20Eudaimonism.htm

50 – E. Zeller : Op Cit , vol. 11 , p. 280 .

51 – J. Barnes : Op Cit , Vol. 11 , 230 .

52 – J. Robinson : Op Cit , p. p. 231 .

53 – G. Vlastos : Op Cit , p. 386 .

54 – Democritus : Fr. 173 , Op Cit , p. 135.

55 – G. Vlastos : Ethics and Physics in Democritus , p. 397 .

56 – Julia Annas : op Cit , , http://www.phil.
canterbury.ac.nz/tom_bestor/e-
texts/Annas%2C%20Julia%20-
%20Democritus%20and%20Eudaimonism.htm

57 – S. M. Robinson : Op Cit , p. 219 .

58 – Democritus : Fr. 216 , Op Cit , p. 138.

59 – P. M. Huby : Greek Ethics , p. 14 .

60 – K. Freeman : Op Cit , p.316 .

61 – J. Robinson : Op Cit , p. 228 .

٦٢– د . أحمد فؤاد الأهواني : المرجع السابق ، ص ٢٢٦ .

63 – Democritus : Fr. 119,op cit , p. 134 .

64– G. Vlastos : Op Cit , p. 383 .

65 – Democritus : Fr. 119 , p. 134.

66 – G. Vlastos : Op Cit , p. 395 .

67 – F. J. T. Lee :History of Wisdom,B1, Ancient Greek Philosophy,
http://www.franz-lee.org/files/praxistheory00010.htm

68 – Democritus : Fr. 200 , p. 140.

69 – G. Vlastos : Ethics and Physics , p. 395 .

70 – Democritus : Fr.202 . p. 140.

71 – G. Vlastos : Op Cit , p. 395 .
72 – W. C. K. Guthrie : Op Cit , vol. 11, p. 490 .
٧٣– ول ديورانت : قصة الحضارة ، م١ ج٢ و ترجمة / محمد بدران ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة، ١٩٦٨، ص ٢٠١ .
74 – Julia Annas :op cit , http://www.phil.canterbury.ac.nz/tom_bestor/e-texts/Annas%2C%20Julia%20-%20Democritus%20and%20Eudaimonism.htm
75 – Democritus , http://www.humanistictexts.org/democritus.htm
76 – G. Vlastos : Op Cit , p. 395 .
77- E. Zeller : A History Of Greek Philosophy , Vol. 11, p.279 .
78 – K. Freeman : The Presocratic Philosophers , p. 316 .
79 – J. Robinson : Op Cit , p. 224 .
80 – Democritus : Fr. 173 , Op Cit , p. 137 .
82 – K. Freeman : Op Cit , p. 316 .
83 – Democritus : Fr. 110 , Op Cit , p.135 .
83 – Julia Annas : Op Cit , , http://www.phil.canterbury.ac.nz/tom_bestor/e-texts/Annas%2C%20Julia%20-%20Democritus%20and%20Eudaimonism.htm
84 – J. Robinson : Op Cit , p. 229 .
85 – J. Barnes : Op Cit , Vol. 11 , p. 229 .
٨٦ – د/ أحمد فؤاد الأهواني : المرجع السابق ، ص ٢٢٧ .
87 – Democritus : Fr. 191 , Op Cit , p. 137 .
88 – J. M. Robinson : Op Cit , p. 220 .
89- J. S. Purinton: op cit , http://omega.cohums.ohio-state.edu/mailing_lists/BMCR-L/2002/0318.phpBMCR 2002.10.01
90 – W. C. K. Guthrie : Op Cit , vol. 11 , p. 497 .
91 – Democritus : Fr.232 , Op Cit , p. 141.
92 – G. Vlastos : Ethics and Physics , pp. 387-388 .
93 – J. M. Robinson : Op Cit . p. 220 .
94– E. Zeller : Op Cit , Vol. 11 , p. 279 .
95 – J. Robinson : Op Cit , p. 222 .
96– Democritus : Frs. 234 -235 , Op Cit , P.141.
97 – K. Freeman : Op Cit , p. 317 .
98 – J. Robinson : Op Cit , p. 224 .
99- G. Vlastos : Op Cit , p. 388 .
100 – W. C. K. Guthrie : Op Cit , Vol. 11 , p. 494 .

101 – J. Robinson : Op Cit , p. 224 .
102 – Democritus : Fr. 222 , Op Cit , p. 138 .
103 – E. Zeller : A History of Greek Philosophy , vol. 11, p. 281 .
104 – Democritus : Fr.67- 68 , Op Cit , p. 132.
105 – K. Freeman : Op Cit , p. 317 .
106 – Julia Annas : Op Cit , , http://www.phil.
canterbury.ac.nz/tom_bestor/e-
texts/Annas%2C%20Julia%20-
%20Democritus%20and%20Eudaimonism.htm
107 – W. C. K. Guthrie : Op Cit , Vol. 11 , p. 494 .
108 – C. C. W. Taylor : Op Cit , p. 198 .
109 – J. Robinson : Op Cit , p. 223 .
110 – A. S. Bogomolov : History of Ancient Philosophy , Trans By :
V. Stankevich , Progress Publishers , Moscow , 1985, p. 167.
111- Democritus : Fr. 146 , Op Cit , 136.
١١٢ – د/ أحمد فؤاد الأهواني : فجر الفلسفة اليونانية قبل سقراط ، ص ٢٢٧ .
113 – J. M. Robinson : Op Cit ,p. 219 .
114 – Julia Annas ,Op Cit , , http://www.phil.
canterbury.ac.nz/tom_bestor/e-
texts/Annas%2C%20Julia%20-
%20Democritus%20and%20Eudaimonism.h m
115 – K. Freeman : Op Cit , p. 318 .
116 – G. Vlastos : Op Cit , p. 390 .
117 – Democritus : Fr.64 – Fr. 65 , op Cit , p. 132.
118 – G. Vlastos : Op Cit , p. 394 .
119 – Democritus : Fr.210 , fr. 119 , Op Cit , p. 136.
120 – J. Robinson : Op Cit , p. 225 .
121 – Democritus ,
http://www.humanistictexts.org/democritus.htm
122- J. Robinson : Op Cit , p. 234 .
123 – K. Freeman : Op Cit , p. 317 .
124 – G. Vlastos : Op Cit , p. 397 .
125 – E. Zeller : Op Cit , Vol. 11 , p. 283 .
126 – Democritus : Fr.252 ,Op Cit , p. 139.
127 – J. Robinson : An introduction to early Greek Philosophy , p.
231
128- A. S. Bogomolov : Op Cit , p. 168 .
129 – Democritus ,
http://www.humanistictexts.org/democritus.htm

130 – J. Robinson : Op Cit , p. 232 .
131 – Diogenes Laertius : Op Cit , Vol.11, 9 , 45 , p.455.
132- A. S. Bogomolov : Op Cit , p. 164 .
133 – W. C. K. Guthrie : O Cit , Vol. 11, p. 490 .
134 – J. Robinson : Op Cit , p. 233 .
135 – Ibid , 234 .
136 – E. Zeller : Op Cit , Vol. 11 , p. 285 .
137 – J. Robinson : Op Cit , p. 228 .
138 – Democritus : Fr. 276 , Op Cit , p. 142 .
139 – G. S. Kirk & J. E. Raven : The Presocratic Philosophers, p. 424 .
140 – E. Zeller : Op Cit , Vol. 11, p. 285 .
141 – Ibid , p. 283 .
142- Democritus : Fr. 42 , Op Cit , p. 131 .
143 – Democritus ,
http://www.humanistictexts.org/democritus.htm
144 – Ibid .
145 – Democritus : Fr.277 , Op Cit , p. 340 .
146 – A. S. Bogomolov : Op Cit , p. 168 .
١٤٧ – هنري سدجويك : المجمل في تاريخ فلسفة الأخلاق ، ترجمة د/ توفيق الطويل ، عبد الحميد حمدي ، دار نشر الثقافة ، الإسكندرية ، ١٩٤٩ ، ص ٨٧
148 – K. S. Kirk & J. E. Raven : Op Cit , p. 425 .
149 – W. C. K. Guthrie : Op Cit , Vol. 11 , p. 490 .
150 – A. S. Bogomolov : Op Cit , p. 169- p. 170 .
151 – K. S. Kirk & J. E. Raven : Op Cit , p. 426 .
152 – P. M. Huby : Op Cit , p. 14 . and vide :
- J. S. Purinton : op cit, http://omega.cohums.ohio-state.edu/mailing_lists/BMCR-L/2002/0318.phpBMCR 2002.10.01
153 – Julia Annas : Op Cit , http://www.phil.canterbury.ac.nz/tom_bestor/e-texts/Annas%2C%20Julia%20-%20Democritus%20and%20Eudaimonism.htm
154- J. Barnes : Op Cit , Vol. 11, p.231 .
155 – Ibid , p. 233.